الشيعة

الجذور الأولى للشيعة:

بعض الآراء ترجع بهذه الجذور إلى وقت مبكر شديد التبكير، إلى فترة الرسالة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم. هنالك حيث التأمت جماعة من الصحابة تفضل عليًا على غيره من الصحابة وتتخذه رئيسًا... ومن هؤلاء: عمار بن ياسر، وأبو ذر الغفارى، وسلمان الفارسى، والمقداد بن الأسود، وجابر بن عبدالله، وأبى بن كعب، وأبو أيوب الأنصارى، وسهل وعثمان ابنا حنيف، وأبو الهيثم بن التيهان، وأبو الطفيل عامر بن وائلة، وبنو العباس، وبنو هاشم[1].

وبعضهم يرجع بهذه الجذور إلى الموقف الذى نشأ حول الخلافة، وإثر انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، فهناك التفت حول على جماعة ترى أنه الأحق بالخلافة، فى مقابل الجماعات التى التفت حول أبى بكر رضى الله عنهما[2].

ويرجع بعض الباحثين بهذه الجذور إلى أيام الثورة على عثمان رضى الله عنه[3].

وآخرون يرجعون بها إلى الموقف الذى نشأ بمقتل عثمان بخاصة، إذ خالف

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد الجزء الثالث. والفكر الشيعى والنزعات الصوفية لكامل مصطفى الشبيبى (ص٢٠).

(٢) فجر الإسلام لأحمد أمين (ص٢٦٦)، والفكر الشيعى والنزعات الصوفية للشبيبى (ص١٥) والكلام والفلسفة لعادل العوا (ص٢٧).

(٣) انظر تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام.. للمستشرق الألمانى يوليوس فلهوزن (ص٦٢) وتاريخ المذاهب الإسلامية لفضيلة الأستاذ الشيخ أبى زهرة (جـ١، ص٣٢، ٣٣).

طلحة والزبير فى الأمر على على رضى الله عنهم، وأبيا إلا الطلب بدم عثمان بن عفان وقصدهما على رضى الله عنه ليقاتلهما. هنالك تسمى من اتبعه على أمره بـ (الشيعة) وكان كرم الله وجهه يدعوهم شيعتي)[١].

ومن ناحية أخرى فإنه من الواضح تاريخيًا أن استعمال كلمة (شيعة) فى تلك العهود المبكرة لم يكن قد تحدد بعد أو اختص بجماعة على رضى الله عنه.

فإذا كان سيدنا على رضى الله عنه يدعو أنصاره (شيعتي) كما يفيد النص الذى نقله ابن النديم عن إسحاق المذكور سابقًا، فإن معاوية كان يستعمل اللفظ فى أتباعه، إذ يقول لبشر ابن أبى أرطاة حين وجهه إلى اليمن (أمعن حتى تأتى صنعاء فإن لنا بها شيعة)[٢].

وقد جاء فى حوار بين معاوية والحسين رضى الله عنهما قول معاوية للحسين (إنا قتلنا شيعة أبيك...) وورد فيه قول الحسين لمعاوية: (والله إن قتلنا شيعتك...[٣] إلخ) مما يؤكد أن اللفظ ظل حتى ذلك الحين يستعمل فى معناه العام.

ويذكر فلهوزن أن الأمر استمر على هذا النحو إلى أن صارت الدولة الإسلامية خالصة لمعاوية ولم يعد أمره أمر رئيس حزب أو شيعة، عند ذلك أصبح استعمال اللفظ مذكورًا مقصورًا على أتباع على كرم الله وجهه[٤].

ويذهب جمهور الباحثين إلى أن الشيعة لم تظهر إلا بمقتل الحسين رضى الله عنه[٥].

والأمر فى تعدد الآراء هذا يرجع إلى التراوح فى استعمال كلمة (الشيعة) بين مجرد

---

(١) الفهرست لابن النديم (ص٤٢٩).
(٢) تاريخ اليعقوبى (جـ٤، ص١٠٥).
(٣) تاريخ اليعقوبى (جـ٤، ص٢٠٦).
(٤) أحزاب المعارضة السياسية والدينية (ص١٤٦).
(٥) نشأة الفكر الفلسفى للدكتور النشار (جـ٢، ص١٩) وما بعدها.

الالتفاف حول علي رضى الله عنه واتخاذه رائدًا ومثلًا، وبين التطلع إليه كقائد سياسى لجماعة المسلمين، وبين مناصرته فى ظروف الخلافة التى وجد نفسه مضطرًا فيها إلى حرب أعدائه، وبين اتخاذه إمامًا نسجت حوله عقائد الشيعة التى تكاملت بعد.

فلا شك أن الذين ينظرون إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، أو إلى ظروف الخلافة الناشئة بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، لا يقصدون أن فرقة الشيعة الاصطلاحية كانت هناك وإنما يشيرون بذلك فحسب إلى جذورها التى نمت وتطورت من بعد.

مصطلح فرقة الشيعة:

وعن مصطلح فرقة الشيعة نرجع إلى ما يذكره الشهرستانى: الشيعة هم الذين شايعوا عليًا رضى الله عنه على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصًا ووصية، إما جليًا وإما خفيًا، واعتقدوا أن الإمامة قضية أصولية، وهى ركن الدين، وقالوا بوجوب التعيين والتنصيص، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة، وجوبًا، عن الكبائر والصغائر، وبالتولى والتبرى: قولًا وفعلًا وعقدًا إلا فى حال التقية[1]..

ويقول الشيخ المفيد عمن يطلق عليهم اسم التشيع، إنهم: (أتباع أمير المؤمنين صلوات الله عليه. على سبيل الولاء والاعتقاد لإمامته بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بلا فصل، ونفى الإمامة عمن تقدمه فى مقام الخلافة وجعله فى الاعتقاد متبوعًا لهم غير تابع لأحد منهم على وجه الاعتقاد)[2].

ويضيف الأستاذ الدكتور على سامى النشار إلى ذلك: الاعتقاد بأن عليا هو مستودع العلم اللدنى، وإليه تعود الأسرار الإلهية الكاملة، وأنه خاتم الأوصياء جميعًا[3].

---

(١) الملل والنحل (جـ١، ص١٣١) وانظر أيضًا مقدمة ابن خلدون (ص١٩٦).

(٢) أوائل المقالات... (ص٣).

(٣) نشأة الفكر الفلسفى (جـ٢، ص١٤).

بهذا الاعتبار الاصطلاحى ينبغى التسليم بأن الشيعة لم تكن قد ظهرت فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم أو إثر وفاته مباشرة، أو فى عصر الشيخين، بل إلى ما بعد ذلك حتى ظهور الغلو على يد السبئية إن تجوزنا فى اعتبارهم وأمثالهم فرقة شيعية..

ويذهب الدكتور كامل مصطفى الشبيبى إلى أن اللفظ لم يأخذ صورته الاصطلاحية الدالة على الحزب الذى يوالى عليًا وبنيه على وجه الخصوص قبل مقتل الحسين رضى الله عنه[1] وهذا الكلام صحيح إذا طرحنا من اعتبارنا غلاة الشيعة السبئية... فكما يقول فلهوزن: (.. كان القدماء من أنصار على يعدونه فى مرتبة مساوية لسائر الخلفاء الراشدين. فكان يسلك مع أبى بكر وعمر وكذلك مع عثمان ـ وقت أن كان عادلًا فى خلافته!! فى مسلك واحد. وكان يوضع فى مقابل الأمويين للخلافة، بوصفه استمرارًا للخلافة الشرعية، وحقه فى الخلافة ناشيء عن أنه كان من أفاضل الصحابة... ولم ينشأ هذا الحق ـ أو على الأقل مباشرة ـ عن كونه من آل بيت الرسول...[2]).

ويقول اليعقوبى فى سبب نفي[3] عثمان لأبى ذر ـ وأبو ذر هو من هو فى سلسلة التشيع عند الشيعة ـ (لأنه كان يقع فيه ـ أى فى عثمان ـ ويذكر ما غير وبدل من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنن أبى بكر وعمر....[4]) فهو إذن كان يتولى الشيخين كما يتولى عليا رضى الله عنهم.

وإلى مقتل الحسين لم يؤثر عن أحد من آل البيت أو أنصارهم المعتدلين ما يفيد احتواء التشيع على أهم عناصره: من قصر استحقاق الخلافة، أو التبرى، أو العصمة...

---

(١) الفكر الشيعى (ص١٦).

(٢) أحزاب المعارضة السياسية والدينية.. (ص٢٤٤).

(٣) ليس من المسلم به أن عثمان هو الذى أخرج أبا ذر إلى الربذة، بل يذهب البعض إلى أن أبا ذر هو الذى رأى الخروج.. انظر (العواصم من القواصم) لابن العربى (ص٧٣).

(٤) تاريخ اليعقوبى (جـ٤، ص١٤٧، ١٤٨).

يقول فلهوزن (... لقد افتتح استشهاد الحسين عصرًا جديدًا لدى الشيعة، بل نظر إلى هذا الاستشهاد على أنه أهم من استشهاد أبيه...[١]).

ويقول الدكتور على سامى النشار: (وتكونت الشيعة حقًا بعد مقتل الحسين: فرقة دينية تتدبر الأمر...[٢]).

ويقول فلهوزن عن حركة التوابين التى قامت عام (٦٥هـ) بقيادة سليمان بن صرد للانتقام لمقتل الحسين: (كان اندحار سليمان بن صرد وجماعته فى عين الوردة نقطة تحول حاسم فى التاريخ الداخلى للشيعة...[٣]).

ومن بعد حركة التوابين ظهرت كلمة الشيعة الحسينية على يد المختار بن عبيد الله الثقفى، وهى الشيعة التى تنتسب إلى محمد بن الحنفية[٤]، وبقيادة المختار تحدد نطاق التشيع واتخذ شيئًا فشيئًا صورة فرقة دينية[٥].

وفى الكوفة بعد مقتل المختار عام (٦٧هـ) أخذت الشيعة تتكون كفرقة دينية كلامية تضع أصول التشيع، ولكنها لم تصل إلى وضع مذهبها النهائى إلا فى عهد إمامة جعفر الصادق[٦].

وسنحاول فى الصفحات التالية إبراز خصائص الشيعة وسنقتصر فى هذا الفصل على الحديث عن أهم فرق الشيعة الداخلة فى حظيرة الإسلام: الزيدية والإمامية، وبداية الإسماعيلية وسنخرج من هؤلاء جيمعًا الغلاة، فبالرغم من نسب يربطهم بالشيعة، إلا أن النسب المعتبر: نسب الإسلام، قد تقطع فيما بينهم، فهم بين مدع للنبوة، أو مدع للألوهية. وموضعهم بين أرباب العقائد غير الإسلامية.

---

(١) أحزاب المعارضة... (ص١٨٨).
(٢) نشأة الفكر الفلسفى (ص٢١).
(٣) أحزاب المعارضة (ص١٥٧).
(٤) نشأة الفكر الفلسفى للدكتور النشار (جـ٢، ص٢١).
(٥) أحزاب المعارضة فلهوزن (ص٢٣٨) وما بعدها.
(٦) نشأة الفكر الفلسفى للدكتور النشار (جـ٢، ص٢١).

١ـ الزيديـــة

هم أتباع زيد بن على بن الحسين رضى الله عنهم. خرج زيد رضى الله عنه بالكوفة (عام ١٢٣هـ) فى ولاية يوسف بن عمر على العراق من قبل هشام ابن عبدالملك وكان خروجه بناء على طلب الشيعة، وبايعه على ذلك أربعة عشر ألفًا منهم، ولما حان موعد اللقاء مع العدو لم يجد معه غير أربعة عشر رجلًا، وارفض عنه الباقون لقوله (خيرًا..) فى أبى بكر وعمر، فقال: (جعلتموهما حسينية) ودخل المعركة وقتل فيها، وكان له اربعة واربعون عامًا، وبعد أن دفن استخرجت جثته وصلبت واستمرت مصلوبة أربع سنين متوالية.

وبقتله قام بالأمر ولده يحيى، ومضى إلى خراسان، فاجتمع عليه بها كثيرون، وبايعوه، وسرعان ما صار إلى مصير أبيه، إذ قتله أمير خراسان، وحرقه وذرى رفاته المحروق فى الفرات عام (١٢٥هـ).

وقد فوض يحيى الأمر بعده إلى محمد وإبراهيم الإمامين ابنى عبدالله بن الحسن بن الحسن اللذين خرجا فى أيام المنصور، وقتلا على ذلك، قتل محمد بالمدينة وقتل إبراهيم بالبصرة.

الإمامة عند الإمام زيد:

وكان زيد يجيز إمامة أبى بكر وعمر، على أساس قاعدته التى تقرر جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل، ولهذا رفضه شيعة الكوفة، فسموا رافضة[١] ومنذ ذلك التاريخ غلب اسم الرافضة على الشيعة فيما عدا بعض الزيدية[٢].

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى (جـ١، ص١٣٨).

(٢) نشأة الفكر الفلسفى للدكتور النشار (جـ٢، ص١٥٥).

ومذهب الزيدية فى الإمامة كما ذكره الشهرستانى هو أن الإمامة تجوز فى أى من أولاد فاطمة رضى الله عنها، سواء كان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين، على أن يكون عالمًا زاهدًا شجاعًا، سخيًا، خارجًا مطالبًا بالإمامة وهى تجوز فى غيرهم، وكان زيد يجيز إمامة المفضول من غير الفاطميين مع قيام الأفضل من الفاطميين لمصلحة يراها المسلمون.. كذلك جوز الزيدية خروج إمامين فى قطرين يستجمعان خصال الإمام، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة، وقد مالت الزيدية من بعد عن القول بإمامة المفضول وطعنت فى بعض الصحابة طعن الإمامية[1].

ويوضح ابن خلدون جانبًا من مذهب الزيدية فى الإمامة: إذ يبين انهم قالوا بأن الأدلة اقتضت تعيين على بالوصف، لا بالشخص، ومن ثم ساقوا الإمامة فى ولد فاطمة بالاختيار ويقوم بالاختيار الشيوخ، ومن أوصاف الإمام أن يكون عالمًا، زاهدًا، وجوادًا شجاعًا خارجًا مطالبًا بإمامته[2].

ودور الاختيار: التعرف على الشخص الذى لم يحدد، بمقتضى الوصف الذى حدد، فى إطار أولاد فاطمة رضى الله عنها.. ولذا يقول الجارودية: (والناس قصروا حيث لم يعرفوا الوصف ولم يطلبوا الموصوف[3]). ونجد (الوصف) الذى يتعين به الإمام، فى قول الجاحظ نقلًا عن علماء الزيدية:

(قال علماء الزيدية، وجدنا الفضل فى العمل دون غيره، ووجدنا الفعل كله على أربعة أقسام: أولها القدم فى الإسلام، حيث لا رغبة ولا رهبة إلا من الله... ثم الزهد فى الدنيا.. ثم الفقه الذى به يعرف الناس مصالح دنياهم ومراشد دينهم.. ثم المشى بالسيف كفاحًا فى الذب عن الإسلام...).

ثم يذكر أن الزيدية رأوا أن الأقوال اختلفت فى من يجمع هذه الصفات،

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى (جـ١، ص١٣٧-١٤٠).
(٢) المقدمة (ص١٩٧).
(٣) الملل والنحل (جـ١، ص١٥٧، ١٥٨).

ورأوا أن هذه الأمور اجتمعت فى على، وتفرقت فى غيره... ففضلوه ورأوه أولى بالخلافة[1].

وهذا يعنى أن الوصف الذى اعتبروه محددًا للإمام ليس نصًا واردًا فى كتاب أو سنة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وإنما هو اجتهاد منهم فقط.

ولم أعثر على النص الذى ذهبت الجارودية من الزيدية[2] إلى أنه صدر عن النبى صلى الله عليه وسلم متضمنًا الوصف الدال على على رضى الله عنه.

ويلاحظ أيضًا أن ابن خلدون وهو يذكر مذهب الزيدية فى الإمامة لم يقل إنهم قالوا إن هناك نصًا دل على على بالوصف... وإنما قال إنهم قالوا (إن الأدلة اقتضت[3])، وفرق واضح بين العبارتين. كذلك لم يذكر الشهرستانى أن من الزيدية من قال بهذا النص الوصفى غير الجارودية.

وإذن فإن القول بهذا النص الوصفى لم يكن مذهب الزيدية عامة، ولم يكن قولاً لزيد خاصة، واستنادًا إلى ما ذكره الجاحظ فيما نقلناه عنه سابقًا يمكن القول بأن مقياس الأفضلية عند زيد والزيدية ـ عدا الجارودية ـ مقياس اجتهادى، والحكم بانطباقه على على اجتهادى كذلك..

وعلى أساس هذا الترجيح فليس من الصواب أن ننسب إلى زيد أنه كان يذهب إلى حصر الإمامة فى ذرية على من فاطمة.. لأن مقياس الأفضلية المذكور إذا كان قد انطبق على على، فمن المحتمل أن ينطبق فى المستقبل على واحد من غير الفاطميين، ولم نجد ما يفيد أن لدى زيد قولًا يحصر الإمامة فى هؤلاء...

وبعد ذلك فإن إحراز الشخص لصفات الأفضلية بالمعنى المذكور آنفًا ليس كافيًا لإيجاب تنصيبه إمامًا، فإن مصلحة المسلمين هى المرجع النهائى فى ذلك: ينقل الجاحظ عن علماء الزيدية قولهم:

---

(١) الفصول المختارة (جـ٢، ص٢١٣) وما بعدها.

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى (ص٣٠).

(٣) المقدمة (ص١٩٧).

(فقد يكون الرجل أفضل الناس ويلى عليه من دونه فى الفضل، حتى يكلفه الله طاعته وتقديمه، إما للمصلحة والإشفاق من الفتنة. وإما للتغليظ فى المحنة، وتشديد البلوى والكلفة كما طلب الله إلى الملائكة السجود لآدم وهم أفضل منه... وكما ملك الله طالوت على بنى إسرائيل وفيهم يومئذ داود...)[1].

ونتيجة لهذا نقول إن زيدًا ـ والزيدية فى بداية أمرهم ـ يرون صحة إمامة أبى بكر وعمر بناء على أن المصلحة العامة اقتضت ذلك.

ومن هذا يصح لنا أن نستنتج بعد ذلك أن زيدًا لم يكن شيعيًا[2] بالمعنى الذى صار إليه هذا الوصف فى عصره وإنما كان شيعيًا بالمعنى العام الذى يفيد حب على وأفضليته، ولا يزيد.. وهذا القدر من الشيعية فيه لم يكن مقنعًا للأكثرية من الخارجين معه، لذلك كان انفضاضهم من حوله.

أما حصر الإمامة فى أولاد فاطمة رضى الله عنها فقد كان مذهب بعض الزيدية من بعد زيد.. كما أن عبارة الشهرستانى فى تصوير مذهب زيد وهى قوله بعد تقديم مذهب الزيدية عمومًا: (وزيد بن على ـ لما كان مذهبه هذا المذهب ـ أراد أن يحصل الأصول والفروع حتى يتحلى بالعلم...[3]). أقول إن هذه العبارة تدل على قلق عند الشهرستانى فى تصويره لمذهب زيد، إذ يستنتج مذهبه من مذهب أتباعه، ولا يقدمه لنا بطريق مباشر، ومثل هذا الاستنتاج ليس ضروريا، إذ قد يكون لإمام الجماعة رأى مخالف لما ذهب إليه أتباعه من بعده، وهذا ما نرجح حصوله فى تطور مذهب الزيدية بناء على النصوص التى سقناها عن الجاحظ.. كذلك فإننا نرى فى عبارة ابن النديم تأييدًا لما نذهب إليه، إذ يقول: (الزيدية الذين قالوا بإمامة زيد بن على عليه

---

(١) الفصول المختارة للجاحظ (جـ٢، ص٢٢) وانظر أيضًا الملل والنحل للشهرستانى (جـ١، ص ١٣٨).

(٢) يقرر الشيخ المفيد فى كتابه أوائل المقالات (ص٤) أن الشيعة من الزيدية هم الجارودية.

(٣) الملل والنحل (جـ١، ص١٣٧، ١٣٨).

السلام ثم قالوا بعده بالإمامة فى ولد فاطمة..)[1] وظاهر قول ابن النديم أن البعدية متعلقة بالقول لا بالإمامة.

وإذن فإن زيدًا لم يكن به من التشيع أكثر من القول بأفضلية على كرم الله وجهه، بل تدل النصوص التى سقناها عن الجاحظ على أن هذه الأفضلية التى هى لعلى رضى الله عنه فى ذاته لا تنسحب إلى القول بأن إمامته كانت أكثر ملاءمة للمصلحة من إمامة أبى بكر وعمر.

وليس لدينا ما يدل على قوله بتوريث الإمامة، أو حصرها فى أبناء فاطمة، أو ما يدل على القول بعصمة الإمام أو رجعته.[2]

كما يقول الدكتور على سامى النشار: (لم تكن حركته للشيعة وإنما هى حركة إسلامية استهدفت الخروج على الإمام الظالم[3])..

موضوعات علم الكلام عند الإمام زيد:

أما عن إسهام الإمام زيد فى موضوعات علم الكلام الأخرى فإن الدكتور على سامى النشار يصل فى بحثه للعلاقة بين الشيعة والمعتزلة إلى أن زيد بن على آمن بالعدل، وانكر رأى المجبرة ودعاهم بالقدرية، كما أنكر رأى المرجئة القائلة بأنه لا يضر مع الإيمان معصية[4].

ويرجح الدكتور النشار أن زيدًا إنما خرج استجابة لاعتقاده بوجوب الخروج تحقيقًا لمبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[5] ومن ثم لم يكن يؤمن زيد بالتقية الشيعية التى كان يعلنها فى ذلك الحين ابن أخيه جعفر الصادق[6].

---

(١) الفهرست (ص٢٥٣).

(٢) الفرق للنوبختى ص٢٧، وانظر نشأة الفكر الفلسفى للدكتور النشار ج٢، من ١٥٥ إلى ١٦٦، ٢٠٤.

(٣) نشأة الفكر الفلسفى (جـ٢، ص١٥٦).

(٤) المصدر السابق (ص١٦٨).

(٥) المصدر السابق (١٥٢).

(٦) المصدر السابق (١٧١).

ويذكر أن الزيدية آمنت كما آمنت الإمامية بفكرة خلق القرآن، ثم يقرر أنه لم يرد عن زيد نفسه شيء يمس هذه المسألة من قريب أو بعيد[١].

ويذكر صاحب المنية والأمل أن الاختلاف بين زيد وبين المعتزلة إنما كان فى المنزلة بين المنزلتين، إذ ذهب فيها إلى أن مرتكب الكبيرة لا يذهب عنه اسم الإيمان أو الإسلام، بل يعذب حينًا من الدهر ثم يرد إلى الجنة[٢]. هذا بينما يذكر الأشعرى أن الزيدية أجمعت على أن أصحاب الكبائر كلهم معذبون فى النار خالدون فيها مخلدون أبدًا[٣].

ويذكر الشيخ المفيد أن الزيدية ترى أن الصفات ليست معانى غير الذات ويرجح الدكتور النشار أن زيدًا لم يذهب إلى هذا الحد من دقيق الكلام، وإنما قالت به الزيدية من بعده. ولعلها ـ فيما أرى ـ ذهبت من بعده كذلك مذهبها فى تخليد مرتكب الكبيرة فى النار الذى نقله عنها الإمام الأشعرى مخالفة إمامها الذى كان يذهب فيه مذهب أهل السنة...

وهنا نتساءل هل أخذ زيد بعض اجتهاداته الكلامية عن المعتزلة؟

لقد بدا أن زيدًا ذهب إلى مثل ما ذهبت إليه المعتزلة فى العدل.. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أما بقية المسائل، فبعضها لم يؤثر عنه فيه قول صريح أو وغير صريح وبعضها خالف فيه المعتزلة.

فهل يكفى هذا القدر من الاتفاق ـ برغم هذا القدر من الاختلاف ـ فى القول بأن زيدًا تابع المعتزلة فيما ذهبت إليه؟

لقد ذكر الشهرستانى أن زيدًا تتلمذ فى الأصول لواصل بن عطاء[٤].

وذكر صاحب فوات الوفيات نقلًا عن ابن عساكر فى تاريخ دمشق أن زيدًا

---

(١) نشأة الفكر الفلسفى (ص١٦٨).
(٢) المنية والأمل (ص٢٠)، وأوائل المقالات للشيخ المفيد (ص٩٤).
(٣) الملل والنحل (جـ١، ص١٢٨، ١٢٩).
(٤) الملل والنحل (جـ١، ص١٢٨، ١٢٩).

تتلمذ لواصل، وكان أخوه محمد الباقر يعيب عليه ذلك، لرأى واصل فى جده ولمخالفة واصل لرأى أهل البيت فى مسألة القضاء والقدر[1].

وكذلك كان يعيب عليه جعفر الصادق حضوره مجلسه، ويحاول كف واصل عن مقالته فى العدل التى كان يسارع إلى محضرها زيد وغيره من أهل البيت[2].. فهل يكفى هذا الحكم بتبعية زيد لواصل؟

يرى فضيلة الأستاذ محمد أبو زهرة أن زيدًا لم يتتلمذ على واصل وإنما ذاكره فى آرائه وزامله فيها.. وهذا ما أرجحه بعد ما ثبت من وجود اختلاف فى الرأى بينهما فى عدد من المسائل، ما بينهما من أوجه الاتفاق لا يعدو مسألة العدل، أما مسألة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فلا أظن أن زيدًا وهو القائد المكافح المجاهد المسلم أولًا وأخيرًا كان بحاجة إلى أن يتتلمذ فيها على غير تعاليم الإسلام الواضحة مهما يكن موقف المعتزلة من هذا المبدأ، وقد كان المثل الذى ضربه جده الحسين رضى الله عنه ماثلًا أمام عينيه غير بعيد.

والنتيجة التى نخلص إليها من ذلك أن زيدًا شارك رأس المعتزلة (واصلًا) فى شيء محدود من حركته فى إنماء علم الكلام، وأن نشاطه الأوسع كان فى مجال الإمامة مما له اتصال قوى بالأوضاع السياسية.

هؤلاء هم الزيدية:

قاعدتهم الأولى: القول بأفضلية على وجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل لمصلحة يراها المسلمون.

ثم قالت الصالحية بجواز خروج إمامين فى قطرين، ووجوب الطاعة لكل منهما.. إلخ.

ثم قالت الجارودية منهم: بأن هناك نصًا يدل على إمامة على بالوصف لا بالشخص.

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر (جـ١، ص٢١٠-٢١٢).

(٢) والأمل لابن المرتضى (ص٢٠، ٢١).

وهم بعد ذلك يلتقون بأهل السنة تارة، وبالمعتزلة تارة، وبالإمامية أخرى..

فمما حصل الالتقاء فيه بأهل السنة قول بعضهم بإدخال عنصر الشورى والاختيار فى الإمامة وقولهم بأنها من مصالح الدين لا من أركانه، وبأن الصفات لا هى الذات ولا غيرها. وبأن أعمال العباد مخلوقة لله وهى كسبهم، وبأن الاستطاعة مع الفعل[1]. وقول زيد بعدم كفر مرتكب الكبيرة.

ومما حصل الالتقاء فيه بالمعتزلة قول بعضهم بالعدل، والدعوة لمبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والأخذ بفكرة خلق القرآن، وبأن الاستطاعة قبل الفعل[2] واعتقاد خلود مرتكب الكبيرة فى النار.

ومما حصل الالتقاء فيه بالإمامية قول بعضهم، بإبطال إمامة الشيخين، والقول بالرجعة، ونسبة العلم السرى للأئمة.

بل لقد كان لبعضهم سمة الخوارج فى التكفير.

---

(١) المقالات للأشعرى (جـ١، ص١٣٩).

(٢) المصدر السابق.

obeikandl.com

٢ـ الإمامية الإثنا عشرية

الإمامية هم القائلون بإمامة على رضى الله عنه بالنص الظاهر والتعيين الصادر من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن غير تعيين بالوصف، بل إشارة إليه بالعين: تعريضًا فى مواضع، وتصريحًا مواضع[١].

ويقول الشيخ المفيد فى كتابه أوائل المقالات إن الإمامية (علم على من دان بوجوب الإمامة ووجودها فى كل زمان، وأوجب النص الجلى، والعصمة والكمال لكل إمام) ثم حصر الإمامة فى ولد الحسين بن على عليهما السلام وساقها إلى الرضا أبى الحسن على بن موسى عليه السلام. ويبين المؤلف أن التسمية فى الأصل كانت شاملة لغير من يسوق الإمامة على الوجه المذكور، إلا أن هؤلاء انتقلوا عن أصلهم واستحقوا ألقابًا أخرى لأقاويل أحدثوها[٢].

وهم يسوقون هذه الإمامة من بعد على كرم الله وجهه فى أولاده من فاطمة: الحسن (ت ٥٠هـ) ثم الحسين (ت ٦١هـ)، ثم على زين العابدين (ت ٩٤هـ) ثم أبى جعفر محمد الباقر (ت ١١٣هـ)، ثم أبى عبدالله جعفر الصادق (ت ١٤٨هـ).

وهم قد اختلفوا بعد ذلك:

فتستمر الإمامية التى لقبت فيما بعد بالاثنى عشرية فى سوق الإمامة من جعفر الصادق إلى موسى الكاظم (ت ١٨٣هـ)، ثم أبى الحسن على الرضا (ت ٢٠٢هـ)

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى (جـ١، ص١٤٤ إلى ١٤٧) والمقدمة لابن خلدون.

(٢) انظر أوائل المقالات (ص٧) وما بعدها.

ثم أبى جعفر محمد الجواد (ت ٢٢٠هـ) ثم على الهادى (٢٥٤هـ) ثم أبى محمد الحسن العسكرى (ت ٢٦٠هـ) ثم محمد المهدى المنتظر، المختفى نحو (عام ٢٦٠هـ أو ٢٦٥هـ أو ٢٧٥هـ).

أما الفرع الآخر فقد ساق الإمامة فى أولاد جعفر من جهة ولده إسماعيل، وهؤلاء هم الإسماعيلية أو الباطنية التعليمية[١].

وبين هاتين الفرقتين الكبيرتين كان من بين الإمامية فرق لم تسر على هذا النحو من سوق الإمامة: فالباقرية توقفوا عند الإمام محمد الباقر، وقالوا برجعته.

والناووسية قالوا بمثل ذلك فى على رضى الله عنه، ثم فى جعفر الصادق.

والأفطحية نقلوا الإمامة من الصادق إلى ابنه عبد الله الأفطح أخى إسماعيل...

والشميطية قالوا بانتقال الإمامة من الصادق إلى ابنه محمد.

والموسوية منهم من وقف بالإمامة عند موسى بن جعفر، وأنكروا موته، وقالوا برجعته...

والإسماعيلية الواقفة... قال بعضهم بانتقال الإمامة من الصادق إلى ابنه إسماعيل وقال بعضهم إنه لم يمت، وقال بعضهم: بل مات، والإمامة بعده فى ابنه محمد، ووقفوا عنده، وقالوا برجعته[٢].

ونحن إذا ذهبنا نتتبع فرق الإمامية واختلافاتهم فى سوق الإمامة، أو فى الوقوف بها، وجدنا أنفسنا أمام تشعب يكاد لا ينحصر، ويكاد يطبع فى أذهاننا صورة أحزاب سياسية بحتة. ولذا فسوف نلتفت منذ الآن إلى التطور الفكرى للإمامية وإلى الركائز الاعتقادية التى قامت عليها.. وليمكننا أن نستنتج فيما بعد دوره فى نمو هذه الفرقة.

---

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (جـ١، ص٥٧٠)، وفرق الشيعة للنوبختى (ص١١٥)، وضحى الإسلام لأحمد أمين (جـ٣، ص٢١١).

(٢) انظر الملل والنحل للشهرستانى (جـ١، ص١٤٧) وما بعدها، والفرق بين الفرق للبغدادى (ص٦١) وما بعدها، فرق الشيعة للنوبختى (ص٧٠) وما بعدها.

يضع الدكتور على سامى النشار علامات على تطور الإمامية (الاثنى عشرية) فيذكر أنه كان لكل عصر من عصورهم عقائده وفلسفته واتجاهاته:

فامتاز عصر الإمام على زين العابدين بالحديث... وكذلك كان عصر الإمام الباقر، أما عصر الإمام جعفر الصادق ففيه اتسع الكلام فى الفقه، وفى علم الكلام، ونسب إليه القول بمذاهب لفرق كثيرة متعارضة، وبعد عصره قام علماء المذهب كهشام بن الحكم ومؤمن الطاق، وغيرهما من علماء الإمامية بصوغ المذهب وتحديده، ثم كان للإمام على الرضا (ت ٢٠٢هـ) فضل اكتمال صوغ المذهب فى عبارات ونصوص تجد حظها من الحفظ كما تجد حظها فى سرعة التلقى، والإيمان[1].

ونحن واقفون فى هذا الكتاب عند الحقائق الأساسية للإمامية، ولا نتعدى عصر الرضا، اللهم إلا أن يكون ذلك التماسا للشرح والتوضيح.

وقد وجدنا أن التركيز فى شرح مذهب الإمامية، على دعوى النص على إمامة على بالتعيين، وإجرائها فى الأئمة من بعده على النحو الذى ذكرناه يعطى صورة ناقصة عن المذهب إلى حد بعيد، وينعكس ذلك بدوره على تقويم المذهب.

إن الكلام عن الإمامة على النحو السالف، يشجع على اعتبار المذهب تيارا سياسيا وعلى اعتبار أصحابه حزبا يسهم فى الصراع حول تسلم مقاليد الحكم، ولا يكاد يخفف من ذلك القول بأن المذهب يضع الإيمان بالإمام ركنا من أركان الدين، وجزءا أساسيا فى العقيدة لأنه إلى هذا الحد يبدو الأمر مجرد تعسف، من جماعة تريد التأكيد على أهمية الإمامة ونظرتها السياسية إليها فتنقلها من نطاق الحكم والسياسة إلى نطاق العقيدة... هكذا بغير مبرر ظاهر.

لكننا إذا نظرنا إلى الصفات التى يسبغها الإمامية على الإمام، ومستنداتهم وتبريراتهم التى يسوقونها فى إسباغ هذه الصفات عليه، وجدنا أنفسنا أمام مذهب ينطوى على أسس عقدية أصيلة.

---

(١) نشأة الفكر الفلسفى للدكتور النشار (جـ٢، ص٢٧٩) وما بعدها.

فالإمام عند الإمامية يتصف بالعلم الكامل أولا.

وبالعلم السرى المكنون ثانيا.

وبالاستمداد الإلهامى من الله ثالثا.

وبالعصمة عن الخطأ والسهو رابعا.

وهو بعد ذلك ـ أو قبل ذلك ـ شخصية نورانية، من معدن النبوة.

أما أنه يتصف بالعلم الكامل فإن الإمامية يسوقون لذلك أدلة، أظهرها تفسيرهم (أهل الذكر) فى قوله تعالى: **(فاسألو أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)** بأهل النبى، أهل بيته، باعتبار أن (الذكر) هو الرسول، كما جاء فى قوله تعالى: **(قد أنزلنا إليكم ذكرا رسولا)** ثم تفسيرهم لحديث رووه ـ كما رواه بعض أهل السنة ـ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، اشتهر بحديث الثقلين، وروى بروايات عدة، منها ما رواه الترمذى عن زيد بن أرقم، أنه صلى الله عليه وسلم، قال: "إنى تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى، ولن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفونى فيهما"، وفى روايات أخرى "وأنا تارك ثقلين" و"إنى تارك فيكم خليفتين" و"إنى تارك فيكم أمرين" و"كتاب الله وسنتى" وعند الإمامية أن هذا الحديث جعل العترة أهل البيت بمنزلة القرآن وعدلا له، كما جعل لهم جميع ما كان للنبى من المناصب إلا النبوة، ليكون كأنه بنفسه موجود يقوم على رعاية الشريعة والأمة من كل جهة كان يتولاها، وقد نزل الحديث العترة منزلة القرآن، فلابد من أن يكون عندهم كل ما فيه من العلوم، فمن ثم يكون الإمام عالما بجميع تفاصيل القرآن والسنة لتؤخذ عنه علومهما كاملة[1].

---

(١) انظر عقيدة الشيعة فى الإمام للسيد حسين يوسف مكى العاملى من ص (٧٦-١٠٨)، والمقالات للأشعرى (جـ١، ص١١٧) وفرق الشيعة للنوبختى (ص١٦) ونشأة الفكر الفلسفى للدكتور النشار (جـ٢، ص٣٤).

ويقول الشيخ موسى الصدر: (والإمام.. النموذج الكامل فى قوله وفعله، فى فكره وعواطفه، فى رأيه بالموجودات[1] ونظرته إلى الكون، وفى كل المسالك الفكرية والخلجات القلبية... ورأى الإمام فى تفسير الآيات القرآنية هو الرأى المفضل، حيث إنه المثل الكامل فى الإدراك الإسلامى لكلام الله وحيث إنه يحمل التراث العلمى الدينى من رسول الله)، قال الإمام جعفر الصادق: (كل ما أرويه لكم فقد رويته عن أبى الباقر عن أبيه على بن الحسين عن أبيه الحسين عن أبيه على بن أبى طالب عن رسول الله[2]).

ويروى الشيعة عن ابن عباس قوله: (إنى كنت عند أمير المؤمنين، وهو يفسر فاتحة الكتاب فرأيت نفسى عنده كجرة عند بحر عظيم)، وقوله: (لو شئت لأوقرت حمل سبعين بعيرا عن تفسير فاتحة الكتاب)، ويروون أيضا عن على رضى الله عنه: (ما أنزلت آية من القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وأقرأنيها وأملاها على فكتبتها بيدى، وعلمنى تفسيرها وتأويلها ومحكمها ومنشأها، وناسخها، ومنسوخها، وخاصها، وعامها، ودعا الله أن يعطينى فهمها وحفظها، ووضع يده على صدرى، ودعا الله أن يملأ قلبى علما وفهما وحكما ونورا[3]).

ويذكر الأشعرى أن من الروافض من ذهب إلى أن الإمام يحيط علما بكل شيء وأن منهم من ذهب إلى أنه يعلم كل أمور الأحكام والشريعة[4].

ويذكر النوبختى أن الشيعة يروون أن عليا قد وضع (عنده النبى صلى الله عليه وسلم من العلم ما يحتاج إليه الناس من الدين: الحلال والحرام، وجميع منافع دينهم

---

(١) هكذا بالأصل.

(٢) مقدمة كتاب تاريخ الفلسفة الإسلامية، لهنرى كوربان (ص١٥) ومقتضى ما رواه عن الإمام جعفر أن يكون رأيه هو الرأى الصحيح لا المفضل فحسب.

(٣) نقل هنرى كوربان هذه النصوص عن الملا صدر وهى بتحقيق المراجعين وهما من علماء الشيعة انظر (ص٩٦، ٩٧).

(٤) المقالات (جـ١، ص١١٧). فرق الشيعة للنوبختى (ص١٦) وانظر أيضا أوائل المقالات للشيخ المفيد (ص٨).

ودنياهم ومضارها، وجميع العلوم: جليلها ودقيقها واستودعه ذلك كله، واستحفظه إياه)[1].

وأما أن الإمام يحوز العلوم السرية المكنونة: فالإمامية يذكرون أن الرسول صلى الله عليه وسلم أودع لدى على رضى الله عنه والأئمة من بعده الكتب التالية:

١- **الجامعة**: كتاب طوله سبعون ذراعا من إملاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وخط على رضى الله عنه، فيها جميع ما يحتاج إليه الناس من حلال وحرام والأئمة يتبعون ما فى هذه الصحيفة ولا يحتاجون إلى أحد فى علومهم، ومن ثم فهم لا يأخذون بالقياس كما أخذ به غيرهم ممن ضلوا عن هذه الجامعة.

٢- **كتاب الجفر**: وهو (من مؤلفات أمير المؤمنين على رضى الله عنه أملاه[2] عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو غير الجامعة..) والجفر اثنان: الجفر الأبيض وفيه علوم الأنبياء والوصيين وعلم العلماء الذين مضوا من بنى إسرائيل، كصحف إبراهيم وموسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى وغيرها، ومصحف فاطمة. والجفر الأحمر وفيه علم الحوادث الدموية والحروب، ولا يفتح إلا للدم[3]. وفى كلام الجفرين علم الحوادث وما سيجرى، وسوف يجرى، وعلم المنايا والبلايا، وأما كيفية استنباط الحوادث المغيبة منه فلم يظهر لنا ذلك[4]، وأصل وجود هذا العلم عند الأئمة، لا يمكن إنكاره لتواتر الروايات فيه)[5].

٣- **مصحف فاطمة**. (وهو من مؤلفات على رضى الله عنه، وقد تواترت الروايات فى وجود هذا الكتاب عند الأئمة، وأنه مما أملاه رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) فرق الشيعة للنوبختى (ص١٦) وانظر أيضا أوائل المقالات للشيخ المفيد (ص٨).

(٢) لست أدرى كيف يمكن وصف هذا الكتاب بأنه من مؤلفات الإمام ومن إملاء الرسول صلى الله عليه وسلم فى نفس الوقت.

(٣) يعنى للحرب.

(٤) السيد حسين يوسف مكى العاملى فى كتابه عقيدة الشيعة (ص٦٨).

(٥) المصدر السابق.

على على عليه السلام، كما فى بعض الروايات) روى عن الصادق قوله: (إن عندى الجفر الأبيض: فيه زبور داود، وتوارة موسى، وإنجيل عيسى وصحف إبراهيم، والحلال والحرام، ومصحف فاطمة عليهما السلام ما أزعم أن فيه قرآنا. وفيه ما يحتاج الناس إليه) وفى رواية أخرى أن الصادق سئل عن مصحف فاطمة فقال: "إن فاطمة مكثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة وسبعين يوما وكان قد داخلها حزن شديد على أبيها، وكان جبريل يأتيها فيحسن عزاءها على أبيها ويطيب نفسها، ويخبرها عن أبيها ومكانه، ويخبرها بما يكون بعدها فى ذريتها وكان عليه السلام يكتب ذلك فهذا مصحف فاطمة)[1] وتشير الروايات إلى أن فى هذا المصحف أسماء الملوك، وأنه ليس لبنى الحسن شيء من الخلافة، وفيه علم ما يكون من الحوادث. ويذكر الإمامية أنه لا منافاة بين القول بأن هذا المصحف من إملاء الرسول عليه الصلاة والسلام على على عليه السلام، وبين القول بأنه كان من حديث جبريل لفاطمة رضى الله عنها إذ يقولون بعضه هذا، وبعضه ذلك، بل (يمكن أن يقال: إن لها مصحفين، أحدهما من إملاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وخط على، والثانى من حديث جبريل لفاطمة خطه علي). ويستند الإمامية فى صحة ذلك إلى ما هو متفق عليه بينهم وبين أهل السنة من أنه روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم، قوله: "إن فيكم محدثين.."، وما روى عن بعض الصحابة أنه قال: (كنت أحدث حتى اكتويت..) كما يستندون إلى أحقية فاطمة بالكرامة، وهى حظ للكثيرين...

وعلى أية حال هم يقولون: (... أطلق عليه اسم (المصحف) ولكنه ليس من القرآن المنزل على النبى صلى الله عليه وسلم معجزة لنبوته، بل ليس فيه آية من القرآن كما صرحت الروايات بذلك..)[2].

---

(١) انظر عقيدة الشيعة للسيد يوسف مكى العاملى من (ص٦٣، إلى ٧٦).

(٢) المصدر السابق.

ومهما يكن من أمر فإنه لا يسعنا هنا إلا أن نبدى الدهشة من تجاهل الأثر الذى يمكن أن يحدثه فى عقيدة الناس تسمية كتاب بنفس التسمية التى كانت للقرآن. ولم؟ أضاقت أرض الأسماء بما رحبت؟ وما جدوى التهرب من تبعة ذلك إذا أعطى هذا الكتاب قداسة ونسبة إلى الوحى الذى يأتى به جبريل مثل ما كانت للقرآن هذه النسبة...؟ وماذا يبقى بعد ذلك؟ يبقى أن القرآن مكشوف للناس ومصحف فاطمة مكنون عنهم، فليت شعرى أيهما يزيد بذلك وأيهما ينقص فى باب الشرف والتقديس[1]..؟

وليست سرية علوم الأئمة قاصرة على ما لديهم من مدونات اختصوا بها، بل إنهم (.. قد كانوا يعرفون ضمائر بعض العباد، ويعرفون ما يكون قبل كونه.. وليس ذلك بواجب لهم عقلا، ولكنه وجب لهم من جهة السماع..) ومع ذلك (فإن إطلاق القول عليهم بأنهم يعلمون الغيب منكر بين الفساد، لأن الوصف بذلك إنما يستحقه من علم الأشياء بنفسه لا بعلم مستفاد، وهذا لا يكون إلا لله عز وجل)[2].

وفى سرية علوم الأئمة يروى الإمامية عن الإمام الرابع على زين العابدين الأبيات:

إنى لأكتم من علمى جواهره كيلا يرى الحق ذو جهل فيفتننا

وقد تقدم فى هذا أبو الحسن إلى الحسين وأوصى قبله الحسنا[3].

---

(١) يذكر ابن كثير فى البداية والنهاية (ج١١، ص٣٣٨) أن الشيعة أظهروا فى أحد أيام رجب من عام ٣٩٨هـ مصحفا مخالفا للمصاحف التى بأيدى الناس، وذكروا مصحف عبدالله بن مسعود فاجتمع الأشراف والقضاة والفقهاء فى يوم جمعة لليلة بقيت من رجب، وأشار الشيخ أبو حامد الإسفراييني بتحريقه ففعل ذلك بمحضر منهم.

(٢) أوائل المقالات للشيخ المفيد ص٣٨.

(٣) نقله هنرى كوربان عن (الشيراوى فى الإتحاف بحب الأشراف، والشبلنجى فى نور الأبصار، والألوسى فى روح المعاني) أنظر كتابه السابق ص٨٥، وهذه النصوص بتحقيق المراجعين، وهما من علماء الشيعة، وقد رجعت لكتاب الشبلنجى فوجدت فيه البيتين الأخيرين ص١٣١ وفيهما قدم لهما الشبلنجى بقوله (قال الشيخ عبدالجواد الشربينى فى كتاب: درر الأصداف فى مناقب الأشراف: كان على بن الحسين عاملا فى كتمان أسرار الله فى العالم).

فرب جوهر علم لو أبوح به لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا

ولاستحل رجال مسلمون دمى يرون أقبح ما يأتونه حسنا.

وأما أن الإمام يستمد بعض علمه بالإلهام أو بالوحى...

فالإمامية يعتقدون أن علم الأئمة مأخوذ بالتعليم من النبى...، وبواسطة تعليم بعضهم لبعض...، وبالوصايا والاستيداع...، وأن بعض علومهم يكون بالإلهام[1] (والجامع بين الوحى بمعنى الإلهام، والوحى المختص بالأنبياء، هو أن الوحى فى كلام العرب كما نص عليه بعض اللغويين والمفسرين: إعلام فى خفاء ويجرى مجرى الإيماء والتنبيه على الشيء من غير أن يفصح به، فكل من الإلهام ووحى النبوة الذى يصل إلى الأنبياء بواسطة الرسول ـ وهو الملك[2] ـ علم يهجم على القلب من قبله تعالى شأنه، فيعلم الموحى إليه والملهم بما أوحى إليه وما ألهم به، فيكون حقا ظاهرا لديه، متجليا كما يتجلى له الصبح لا لبس فيه ولا غموض، فيسير على مقتضاه عن علم ويقين، كما أشار إليه أمير المؤمنين على ابن أبى طالب فى وصفه للعارفين أهل اليقين... (هجم بهم العلم على حقائق الأشياء، وباشروا روح اليقين... وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها متعلقة بالملأ الأعلى)[3].

ويحتج الإمامية لصحة وقوع الإلهام للأئمة ـ ضد أهل السنة المنكرين عليهم ذلك ـ بما يذهب إليه أهل السنة من إمكان وقوع الإلهام فى ذاته، وبما قرره بعض صوفيتهم من وقوعه بالفعل للأولياء والأصفياء منهم[4].

ويقول بعض الإمامية (وكما أن ما يلهم به الله أنبياءه لابد من وقوعه لأن فيه صلاح البشر فى معاشهم ومعادهم، كذلك ما يلهمه للأئمة (ع) القائمين مقام النبى صلى الله عليه وسلم لابد من وقوعه لأن فيه خير البشر وصلاحهم)[5].

---

(١) عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر ص٦٧ وعقيدة الشيعة للعاملى ص٧٦.

(٢) ولقد رأينا فى النص السابق تصريحهم بأن جبريل نزل على فاطمة رضى الله عنها.

(٣) المصدر السابق ص١٢، ١٢٣.

(٤) المصدر السابق ص١٢٦ وانظر الدين والوحى والإسلام للشيخ مصطفى عبدالرازق ص٥٤، ٥٧، ٧٢، ٧٣.

(٥) عقيدة الشيعة للعاملى ص٧٦.

ويقول عن مورد هذا العلم (... ولكن لا ندعى أن علم الأئمة (ع) الإلهامى يتعلق بخصوص الأحكام الشرعية ولا بخصوص غيرها... كيف والأحكام الشرعية قد بينت فى الكتاب وشرحت بالسنة الشريفة، وكل ما جاء فى الكتاب والسنة وعاه الأئمة عن النبى صلى الله عليه وسلم وبعضهم عن بعض، وليس كل ما فى الكتاب والسنة مختصا بالأحكام الشرعية بل قد بين فيهما الأحكام وغيرها من أخبار الماضين وعلومهم، والمعارف الربانية وأسرار الكون وغير ذلك، ولا مانع من أن يحصل الإلهام بالحكم الشرعى، ولو فرضنا أنه لا يتعلق فى الحكم الشرعى فمورده ما هو أوسع من باب الأحكام، يكون مورده فى المعارف الربانية المترامية الأطراف، وفى تفصيل المجملات وتوضيح الكليات التى اقتضت المصلحة بقاءها على الإجمال إلى وقت لزوم البيان، إذ كما يكون البيان على لسان النبى صلى الله عليه وسلم يكون على لسان القائم مقامه وهو الإمام المعصوم، ويتعلق بالأمور المتجددة الحادثة التى يتحتم العلم بها، فيعلمهم الله بها فى الإعلام بها من المصلحة، ويتعلق بقواعد العلوم الأخرى، وهكذا[1]. ويذكر الأشعرى أن جماعة من الروافض ذهبوا إلى أن الأئمة يهبط عليهم الوحى ومنهم من لا يذهب إلى ذلك[2].

وأما أن الإمام معصوم من الخطأ...

فذلك من مقتضيات علمه الإلهامى، كما أنه من مقتضيات قيامه مقام الرسول فى قيادة المسلمين وهدايتهم...

ويبدو أن فكرة عصمة الأئمة لم تكن من مقولات الشيعة الأوائل، بل ظهرت لدى الغلاة ثم كانت موضعا لإنكار زيد بن على بن الحسين، ثم زاد القول فيها فى آخر الدولة الأموية، وكانت مسلكا من مسالك الدعوة عند آل البيت، كما يبدو أن

---

(١) المصدر السابق ص١٣٧.

(٢) المقالات ج١، ص١١٧.

قول الشيعة بعصمة الأئمة كان هو السبب فى بحث المتكلمين فى عصمة الأنبياء[1]...

إن الأئمة عند الإمامية هم قرناء القرآن بمقتضى حديث الثقلين فإذن (كان لابد من أن يكونوا معصومين لأن القرآن معصوم من الخطأ والسهو والغفلة وتجاوز الصالح والأصلح فيه، ومن الكذب والخروج من الحق إلى الباطل "لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه" ولا يخل فى بيان كل ما فيه صلاح البشر وهدايتهم وإبعادهم عن الضلال وجميع ما يمنع من سعادتهم فى الدنيا والآخرة، فعديله الذى هو بمنزلته وهم الأئمة (ع) معصومون من الخطأ والغفلة والنسيان وتجاوز ما أراده الله تعالى... والنبى صلى الله عليه وسلم معصوم من المعاصى كلها، ومن الخطأ التقصير والنسيان والسهو، فى جميع حالاته، فكذلك من جعله قائما مقامه وخليفة بعده على الناس وعلى القرآن معصومون من كل ما ذكر)[2].

ويقول أحد شيوخهم: (إن الاثنى عشرية يعتقدون أن الإمام كالنبى، يجب أن يكون معصومًا من جميع الرذائل والفواحش، ما ظهر منها وما بطن، من سن الطفولة إلى موته عمدا أو سهوا، كما أنه يكون معصوما من السهو والخطأ والنسيان.. وذلك لأن الأئمة هم حفظة الشرع والقوامون عليه، حالهم فى ذلك حال النبى، والدليل الذى يقتضى عصمة النبى عندهم هو نفس الدليل الذى يقتضى عصمة الإمام)[3].

وإذا كان هذا هو الإمام: متصفا بالعلم الكامل، مستأثرا بالعلوم المكنونة، مستمدا علمه من الله عن طريق الإلهام، يتتلمذ الناس عليه ولا يتتلمذ هو على

---

(١) انظر ضحى الإسلام لأحمد أمين ص٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٣، ونشأة الفكر الفلسفى للدكتور النشار، ج ٢ ص٣٤، ١٦٣، ٢٩٨، ٢٩٩، والمقدمة لابن خلدون ص٢٣٢، وفرق الشيعة للنوبختى ص١٥ وما بعدها.

(٢) عقيدة الشيعة للعاملى ص١٠٨ وما بعدها، وانظر أيضا أوائل المقالات للشيخ المفيد ص٣٥.

(٣) عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر ص٦٧.

أحـد، عصمه الله كما عصم النبيين... فماذا تكون العلاقة بينه وبين النبى: معدنا ودرجة؟

يروى الشيعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أنا وعلى من نور واحد[١]، وأنه قال: "خلقت أنا وعلى من نور واحد قبل أن يخلق الله آدم بأربعة عشر ألف عام"[٢].

وفى ختام هذا الحديث يروون عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلى: لولا أن يقول فيك طوائف من أمتى ما قالت النصارى فى عيسى بن مريم لقلت فيك اليوم مقالا لا تمر على ملأ من المسلمين إلا أخذوا من تراب رجليك وفضل طهورك يستسقون به، ولكن حسبك أن تكون منى وأنا منك، ترثنى وأرثك، وأنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدي"[٣]، ويروون عن الإمام الصادق قوله: "خلقنا الله من نور عظمته، وأرواح شيعتنا من فاضل طينتنا، وفى رواية أخرى عنه: "أن الله خلقنا من نور عظمته ثم صور خلقنا من طينة مخزونة مكنونة من تحت العرش، فأسكن ذلك النور فيه، فكنا نحن خلقا بشرا نورانيين، لم يجعل لأحد فى مثل الذى خلقنا منه نصيبا، وخلق أرواح شيعتنا من طينتنا".

ويروون عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله خلقنى وخلق عليا والحسن والحسين من نور واحد، فعصر ذلك النور عصرة فخرجت منه شيعتنا"[٤].

ومهما يكن من صحة هذه الروايات أو عدم صحتها فإن الذى يعنينا هنا أنها تدل على ذهاب الإمامية إلى نوارنية الأئمة وانتسابهم فى ذلك إلى جوهر النبوة، باعتباره

---

(١) هنرى كوربان فى كتابه تاريخ الفلسفة الإسلامية ص٩٠، يقول المراجعان الشيعيان للكتاب أنه ثابت عن التسترى بإسناده إلى حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى، وينابيع المودة للقندوزى، وكفاية الطالب للقرشى الكنجى، مصادر أخرى.

(٢) المصدر السابق عن المناقب لابن المغازى الواسطى ومصادر أخرى، وفقا لتحقيق المراجعين.

(٣) المصدر السابق عن كفاية الطالب للقرشى الكنجى، وغيره، ويذكر المراجعان أنه متواتر عند الشيعة.

(٤) المصدر السابق (ص٩٨) عن بصائر الدرجات، والملا صدر فى شرحه على الكافى للكلينى وفقا لتحقيق المراجعين.

جوهرا متميزا، ومن ثم يقول هنرى كوربان: يسمح لنا ذلك بأن نهدم حكما سابقا، وإشكالا مفاده أن الولادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكفى لجعل هذا النسيب إماما، إذ يلزمه النص والعصمة، فليس إمامتهم إذن نتيجة لقرابتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، بل لعل العكس هو الأصح، فقرابتهم الأرضية برسول الله علامة على وحدتهم الإبداعية مع رسول الله) ويقول: ".. إن عالم الإبداع الإثنى عشرى يسبق ظهور الأئمة الأرضى فى الوجود، وقرابتهم الدموية أو الأرضية هى أمارة على ولايتهم، ودلالة عليها، ولكنها ليست أساسها مطلقا[1]).

ويقول الشيخ موسى الصدر: (فالإمام الغائب عن الشيعة هو أحد الأئمة الإثنى عشر وهو الحلقة الأخيرة منهم، وكلهم نور واحد، وخط واحد، ويحملون رسالة واحدة)[2].

وإذن فنحن فى النهاية نصل إلى عقيدة فلسفية أو ميتافيزيقية فى الإمام تجعل من الأئمة ومن الرسول جوهرا نورانيا واحدا سابقا على الوجود الأرضى.

وهنا نصل إلى نقطة هامة:

إذا كان الإمام ينتسب إلى جوهر النور النبوى، فيما قبل هذا الوجود الأرضى، أتكون نظرتنا إليهما على سواء؟ وهل تكون للإمامة درجة النبوة؟

واستطرادًا من هنا نقول: إن المرء ـ أمام هذه الآراء ـ لا يستغرب أن تنشأ فى تربتها آراء الغلاة ودعاوى التنبؤ ويجد فى هذه إظهارا طبيعيا لمكنونات تلك.

ولكن لنقف أولا هنا، على أرض الإمامية الخالصة، لنرى تصورها للعلاقة بين الإمامة والنبوة فى مجال التفاضل والترتيب بعد أن رأينا تصورها لتلك العلاقة فى مجال الحقيقة الجوهرية.

---

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية (ص١٠١، ١١٤).

(٢) مقدمة الكتاب السابق (ص٢٧).

يقول هنرى كوربان فى تصوير العلاقة بين الولاية والنبوة والرسالة: (.. إذا تمثلنا هذه المفاهيم الثلاثة على شكل دوائر ثلاث ذات مركز واحد، تمثلت الولاية بالدوائر المركزية لأنها باطن النبوة، وتمثلت النبوة بالدوائر الوسطى لأنها باطن الرسالة التى تمثلها الدوائر الخارجية..)، وينقل هنرى كوربان عن مؤلفى الإمامية قولهم (الرسالة كالقشرة والنبوة كاللب، أما الولاية فمثل زيت هذا اللب)[1] وإذا كان ذلك معناه أن الولاية وهى الباطن ـ وهى أشد قربا إلى الله الذى تتعلق به الحالات الداخلية للكائن ـ أجل من صفة النبوة، وهذه أجل من صفة الرسالة... أو إذا كان معناه أن رسالة الرسول بدون حالة النبوة مثل الشريعة بدون الطريقة الصوفية.. وأن حالة النبى بدون الولاية مثل النظرية الصوفية بدون التحقق الروحى أو بدون الحقيقة... إذا كان ذلك كذلك، فإن الشيعة الإثنى عشرية كما يصورهم هنرى كوربان يبينون أن تقدم الولاية على النبوة أو الرسالة هو ترتيب للصفات من حيث هى، أما من حيث شخص الولى، أو شخص النبى أو شخص الرسول (فإن الصدارة تظل للنبى المرسل إذ يجمع الصفات الثلاث: فهو ولى ونبى ورسول) معا[2].

إذا قلنا إن هنرى كوربان قد بالغ فى تصويره لحقيقة الولاية وكونها باطن النبوة، فإننا نجد فى مصادر الشيعة نفسها ما يؤكد أنهم ذهبوا إلى وحدة الجوهر فى كل من النبوة والولاية أو الإمامة. يقول الشيخ محمد رضا المظفر (فالإمامة استمرار للنبوة...)[3].

ويذكر الكلينى فى كتابه الكافى الفرق بين النبى والرسول والمحدث هكذا: أن الرسول هو الذى ينزل عليه جبريل فيراه ويسمع كلامه وينزل عليه الوحى، وربما

---

(١) لا يبين هنرى كوربان من هم هؤلاء المؤلفون إنما يذكرهم بصيغة التعميم هكذا (يكرر ذلك مؤلفونا هؤلاء). ولم يقف عند هذا النص إثباتا أو نفيا. أنظر كتابه (ص٩٣).

(٢) انظر تاريخ الفسلفة الإسلامية (ص٩٢، ٩٣).

(٣) عقائد الإمامية (ص٦٦).

رأى فى منامه نحو رؤيا إبراهيم، والنبى ربما سمع الكلام، وربما رأى الشخص ولم يسمع، والإمام هو الذى يسمع الكلام ولا يرى الشخص[1].

والشيخ المفيد فى كتابه أوائل المقالات وهو ينسب إلى الأئمة، العلم الإلهى الإلهامى لا يتوقف عن تسمية هذا العلم بالوحى، أو عن تسمية الأئمة بالأنبياء إلا من ناحية التحرج اللفظى.

يقول: (إن العقل لا يمنع من نزول الوحى إليهم وإن كانوا أئمة غير أنبياء..).

ويقول: "سماع الأئمة كلام الملائكة الكرام وإن كانوا لا يرون منهم الأشخاص: أقول بجواز هذا من جهة العقل، وقد جاءت بصحته وكونه للأئمة ومن سميت من شيعتهم الصالحين والأبرار الأخبار واضحة الحجة والبرهان، وهو مذهب فقهاء الإمامية وأصحاب الآثار منهم، وقد أباه بنو نوبخت وجماعة من أهل الإمامة لا معرفة لهم بالأخبار، ولم يعطوا النظر ولا سلكوا طريق الصواب)، ويقول: (منامات الرسل والأنبياء والأئمة لا تكذب وأن الله تعالى عصمهم عن الأحلام، وبذلك جاءت الأخبار عنهم على الظهور والانتشار..)، ويقول: ".. وعندنا أن الله تعالى يسمع الحجج بعد نبيه صلى الله عليه وسلم كلاما يلقيه إليهم فى علم ما يكون، لكنه لا يطبق عليه اسم الوحى لما قدمناه من إجماع المسلمين على أنه لا وحى إلى أحد بعد نبينا صلى الله عليه وسلم..)، ويقول بعد أن عرف كلا من الرسول والنبى: (.. وإنما منع الشرع من تسمية أئمتنا بالنبوة دون أن يكون العقل مانعا من ذلك لحصولهم على المعنى الذى حصل لمن ذكرناه من الأنبياء عليهم السلام...)[2]. فالحجج هم إذن أنبياء معنى.

ومهما يكن القول فإن نظرة الإمامية إلى الولاية والإمام والوحى والنبى

---

(١) نقله المراجعان لكتاب تاريخ الفلسفة الإسلامية لهنرى كوربان (ص١٠٥) عن كتاب الحجة من أصول الكافى للكلينى.

(٢) أوائل المقالات (ص٣٩، ٤١، ٤٢)، وتصحيح الاعتقاد (ص٥٦) وأوائل المقالات (ص١٢) على ترتيب إيراد النصوص التى ذكرناها.

والرسول ـ كما تؤخذ فى حدود صريح الروايات المنقولة عنهم ـ جعلت من الإمام والحجة شخصية تتلقى الوحى بنوع من أنواعه هو الإلهام، وتقوم بوظيفة النبى التعليمية، وهى شخصية إن كان يمتنع أن يطلق عليها فقط لفظ (نبي) لكنها فى حقيقة الأمر تمتلك جوهر النبوة، كما أن هذه النظرة تغرى بأن يطلق على الإمام والحجة أوصاف النبوة، وتمهد السبيل للغلاة المدعين للنبوة.

ومن هنا فقد كانت آراء الإمامية وأقوالهم حول شخصية النبى وشخصية الإمام او الولى أو الحجة تمثل فيما نعتقد ـ طرقا ملحا على قلب المسلم وعقيدته، يثبت الله فيه الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدينا، ويضل الظالمين، ويفعل الله ما يشاء.

وفى اعتقادنا أيضا أن الأمر بعد ذلك لا يكون أمر فرقة مشدودة الانتباه إلى الحياة السياسية، تمسك بمبدأ الوراثة فى الإمامة من جهتها السياسية الخالصة، بل فى المقام الأول وتبعا لما قدمناه ـ فرقة عقدية تمسك بمبدأ الوراثة فى صورة أعمق أشمل، وتكافح به شعورها الغريزى بالحرمان: ـ بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى ـ الحرمان من مجد النبوة وشرف الوحى، ولا تريد أن تكون فيه على حد سواء مع المسلم غير النسيب، إذ كيف يكون ذلك كذلك؟ وهو أمر لا تجد النفوس له مساغا سهلا، أو محببا. وإذا كانت هذه النفوس قد خضعت فى طورها الأول المصون بصحبة النبوة لضوابط الإيمان وروابطه الدقيقة، فلا ترنو فى حلمها بالوراثة لغير وراثة فدك، أو وراثة الحل والعقد فى أمور المسلمين العامة.. فإنه لم يكن من الطبيعى أن تظل مأساة الحرمان ونزعة الوراثة مقموعة هكذا فى أغوار النفس، دون أن تعبر عن نفسها ـ بمرور الزمن ـ تعبيرا تبدو فيه أشد ما تكون وضوحا فيصل الأمر إلى تصور الإمام فى صورته الميتافيزيقية الملتبسة بالنبى أولا، ثم ينفلت الزمام فيصل إلى صورة النبى الصريحة عند مدعى النبوة من غلاة الشيعة، ثم يشطح الخطو فيتردى فى مستنع ادعاء الحلول والأوهية عند غلاة غلاتهم.

هذا وقد زاد من رسوخ العقيدة الإمامية، اعتقادات أخرى حول الإمام:

فالإمام شريك الرسول أو النبى فى استعراض أعمال المسلمين يوم القيامة. (**فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**) المؤمنون هنا هم الأئمة عند بعضهم، فيما ينقلونه عن أبى عبدالله جعفر الصادق[١].

والإمام ليس عنصرا من عناصر الإيمان فحسب، بل هو المصحح له. نسب ذلك إلى أبى جعفر محمد الباقر بل يصل الأمر إلى مقالة مثل مقالة المرجئة: لا تضر مع الإمام معصية، ولا تنفع بدونه طاعة[٢].

ونسب إلى جعفر الصادق أنه قال لبعض شيعته: (.. اسمعوا عنا ما افترض الله عليكم واعملوا به ولا تعصوا الله ورسوله تعصونا بمخالفة ما نقول، فوالله ما هو إلا الله عز وجل ـ أومى بيده إلى السماء ـ ونحن ـ وأومى بيده إلى نفسه ـ وشعيتِنا منا، وسائر الناس فى النار، بنا يعبد الله وبنا يطاع الله، وبنا يعصى الله، فمن أطاعنا فقد أطاع الله ومن عصانا فقد عصى الله، سبقت طاعتنا عزيمة من الله إلى خلقه أنه لا يقبل عملا من أحد إلا بنا: ولا يرحم إلا بنا، ولا يعذب أحدا إلا بنا فنحن باب الله وحجته، وأمناؤه على خلقه وحفظة سره، ومستودع علمه)[٣].

إن ما يستدل به المسلمون عامة على ضرورة النبى للبشر، هو نفسه ما يستدل به الشيعة على ضرورة الإمامة.. فرحمة الله بعباده التى اقتضت إرسال الرسل إليهم لهدايتهم فى أمور دينهم ودنياهم، هى التى اقتضت كذلك استمرار أثر النبوة ورسالتها عن طريق الإمام[٤] (وعلى هذا فالإمامة استمرار للنبوة، والدليل الذى يوجب إرسال الرسل وبعث الأنبياء هو نفسه يوجب أيضا نصب الإمام بعد الرسول)[٥].

---

(١) انظر ضحى الإسلام لأحمد أمين الجزء الثالث (ص٢١٦) ينقل عن الكلينى فى الكافى.

(٢) المصدر السابق (ص٢١٨) عن الكلينى كذلك.

(٣) دعائم الإسلام للقاضى النعمان بن أحمد (جـ١، ص٥٧).

(٤) انظر عقيدة الشيعة فى الإمام للعاملى (ص٩٥).

(٥) عقائد الإمامية للشيخ محمد رضا المظفر (ص٦٦) وإذن فالإمامة من ضرورة الدين ـ عند الإمامية ـ لا من ضروريات المذهب فحسب.

٣ـ الإسماعيلية الأولى

من الصعب معرفة التطور الذى مرت به الإسماعيلية فى مرحلتها الأولى ـ قبل ترسيخ الغلو ـ معرفة واضحة. يقول الدكتور محمد كامل حسين أحد المؤرخين المتخصصين فى الإسماعيلية(... لم يعرف التاريخ شيئا اسمه فرقة الإسماعيلية حتى أواخر القرن الثالث الهجري) وبين أن الإسماعيلية ظلت تعمل فى استتار بعيدًا عن عين التاريخ قرابة قرن من الزمان، إلى أن ظهر القرامطة فى أواخر القرن الثالث فى البحرين، والشام. ويحكى تضارب مؤرخى الإسماعيلية الشديد فى أخبارهم عن الفترة التى تسبق ذلك.

وفى الكلام عن مؤسسى الإسماعيلية تظهر ثلاثة أسماء: المبارك مولى إسماعيل بن جعفر الصادق، أو خادمه، وأبو الخطاب الأسدى، وميمون القداح: يحوط كلا منهم قدر كبير من الغموض.

يذهب المؤخون إلى أن الإسماعيلية نشأت بموت إسماعيل فى حياة جعفر الصادق أبيه، على يد المبارك الكوفى، مولى جعفر، ويذكرون أن إسماعيل كان قبل وفاته على اتصال بالغلاة، ومن هنا حرص أبوه على إثبات موته، وأرسل إلى أبى جعفر المنصور سجلًا يثبت ذلك، خوفًا من ادعاء الغلاة لغيبته أو رجعته، وأنه سرعان ما نادى قوم من خواص إسماعيل بالمدينة ـ بعد وفاة جعفر ـ بمهديته... وهنا ظهر المبارك خادم إسماعيل، وقد كان محبًا له ولابنه محمد، وأخذ يعمل على تثبيت الإمامة لابنه محمد من بعد وفاة أبيه.

وكان محمد بن إسماعيل حين توفى جده يناهز عامه السادس عشر، ولم يقم بنشاط ظاهر حتى وفاة أبى جعفر المنصور، ومضى بعد ذلك عهد المهدى والهادى وفترة كبيرة من عهد الرشيد، ومحمد بن إسماعيل آمن فى الحجاز، ودعاته يعملون فى سرية وغموض، ثم اضطر تحت ضغط هارون الرشيد وتتبعه له إلى أن يهرب من الحجاز ويدخل فى دور الستر إلى أن مات فى عام (١٩٨هـ) وبموته ادعى قوم من أتباعه أنه تغيب فى بلاد الروم، وأنه سيبعث من بعد، بشريعة ناسخة لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يكن هؤلاء بالإسماعيلية الأولى الخالصة ولذا سماهم الرازى فى كتابه (اعتقادات فرق المسلمين): السبعية، ملاحظًا الفرق بينهم وبين المباركية والميمونة..

أما أبو الخطاب الأسدى فقد كانت صلته مبكرة بأسس الإسماعيلية، لقد كان من محبى إسماعيل بن جعفر، ومات فى نفس العام الذى مات فيه إسماعيل فى حياة أبيه، ويمكن القول بأن أبا الخطاب وضع للخطابية طابعها الخاص الذى لا يحسب على الإسماعيلية ذاتها، نظرًا لما ذهب إليه من نقل الإمامة إلى نفسه باعتباره الأب الروحى لإسماعيل، باعتباره أن الاختيار الإلهى القائم على أساس التبنى الروحى هو وحده المعتبر، ولكن هذا المنحى الذى يرجع إلى ابى الخطاب لم يمنع الكثير من الخطابية بعد مقتل زعيمهم من أن يكونوا من الإسماعيلية، وأن ينخرطوا فى سلكها[1].

ويبدو أن الشخصية الثالثة: ميمون القداح ت(١٩٨هـ) هو من كان له القدح المعلى فى بناء المذهب الإسماعيلى والدعوة إليه والعمل على نشره.

ولقد تضاربت الآراء حول شخصية ميمون، سواء من ناحية الوجود التاريخى، أو من ناحية الاتجاه الاعتقادى والفكرى. فبينما يذهب البعض إلى أنه اسم سرى

(١) انظر نشأة التفكير الفلسفى للدكتور النشار (جـ٢، ص٣١٤، ٣١٥، ٣٧١).

لمحمد بن إسماعيل، وأن نفس الشخص هو من تسمى بعبدالله بن ميمون، يرجح الآخرون حقيقة الوجود التاريخى لميمون وابنه عبدالله، ويذهب بعض هؤلاء إلى أنه ينسب إلى سلمان الفارسى، وبعضهم إلى أنه ينسب إلى الأهواز، وبعضهم إلى أنه ينسب إلى باهلة، وبعضهم إلى أنه ينسب إلى عقيل بن أبى طالب، أو إلى آل البيت عامة[1].

أما من ناحية الصورة المذهبية للرجل فهى عند الشيعة الإسماعيلية، صورة الحجة نائب الإمام محمد بن إسماعيل وستره، وهى عند الشيعة الإمامية، صورة المحدث الشيعى، وعند أهل السنة والجماعة، صورة ملحد ثنوى ديصانى، بل لقد ذهب البعض منهم إلى أنه هو أبو شاكر ميمون بن ديصان بن سعيد صاحب كتاب (الميزان) فى نصرة الزنادقة[2].

ومهما يكن من أمر فإن المدافعين عن وجود ميمون، وعن إيمانه، لا ينكرون أن شخصيته وشخصية ابنه كانتا من أغمض شخصيات التاريخ الإسلامى، وغاية ما يدفعون به عنه أنه لم يكن زنديقًا أو ديصانياً (فى أول أمره على الأقل) وأنه من المحتمل أن يكون قد حاول تدعيم إمامة إسماعيل وابنه بمختلف الأفكار الفلسفية التى كان يعرفها أو التى تتلمذ فيها على أبى الخطاب الأسدَى، ومن المحتمل كذلك أن يكون قد غالى فى فضائل الإمامين ـ إسماعيل وابنه ـ مسجلًا ذلك فى الكتاب المنسوب إليه، مستغلًا التأويل الباطنى للآيات القرآنية، ذاهبًا فى ذلك لا إلى حد الزندقة الخالصة أو الديصانية الخالصة (وإن كان هذا النوع من الغلو أشد خطرًا على الإسلام ووحدته من كل ثنوى سافر)[3].

وفضلًا عن ذلك كله فقد كان لميمون وأبنائه وأحفاده من بعده ـ عبدالله بن

---

(١) المصدر السابق (ص٣٧٤ وما بعدها، والفهرست لابن النديم، ص٦٤).

(٢) انظر نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام للدكتور النشار (جـ٢، ص٧٢) وما بعدها، والجزء الأول (ص١٩٥)، والفهرست لابن النديم (ص٢٦٤) وما بعدها.

(٣) نشأة الفكر الفلسفى للدكتور النشار (ص٢٧٣) وما بعدها.

ميمون، والحسن بن عبدالله، وسعيد بن الحسن الذى تسمى فيما بعد بعبيد الله ـ فضل قيام دولة الإسماعيلية الفاطمية بعد حوالى قرن من نشأة الإسماعيلية[١].

وقد تميزت الإسماعيلية الأولى، عن الإثنى عشرية ـ فى موضوع الإمامة ـ علاوة على إثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر بذهابها غلى أن للإمامة دورا يتم بالسابع، ثم يبتدئ من جديد، وأن دور السبعة تم بمحمد بن إسماعيل ثم ابتدئ منه بالأئمة المستورين...[٢].

ويوضح الإمام الرازى أهمية هذه الفكرة عند الإسماعيلية إذ يبسطونها فى الكائنات والأنبياء، والأئمة على السواء، كما يشير إلى مقصودهم من أبطال الشريعة بأسرها.[٣]

وبينما نجد النوبختى يدمغهم بشناعات القول بنسخ شريعة محمد صلى الله عليه وسلم وخروج محمد من الرسالة، وصيرورتها إلى على رضى الله عنه يوم غدير خم، وبالقول بأن محمد بن إسماعيل هو خاتم النبيين، وبالتحلل من الفرائض[٤]، نجد الملطى السنى لا يذكر هذه الشناعات، ويذكر على العكس من ذلك تظاهرهم بالورع والتقوى وأداء الصلوات والزكوات[٥].

وللإسماعيلية نظرتهم فى تفسير الوجود، خلطوا فيها كلامهم ببعض كلام الفلاسفة القائلين بفيض الكائنات عن العقل الأول بترتيب خاص، وعندهم أن أسماء الله الحسنى التى نسبها لنفسه فى القرآن الكريم لا تقال لله وإنما للعقل الكلى، والعقل الكلى عندهم هو المبدع الأول، وإليه رمز القرآن بالقلم، والنفس الكلية هى المبدع الثانى وإليه رمز القرآن باللوح المحفوظ، وللنفس الكلية جميع الصفات التى

---

(١) الفهرست لابن النديم (ص٢٦٤، ٢٦٥) وانظر أيضا كشف أسرار الباطنية لمحمد بن مالك الحمادى اليمنى (ص٣٠) واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازى من (ص٦٧ـ٧٨).

(٢) الملل والنحل للشهرستانى (جـ١، ص١٧٠) وما بعدها.

(٣) اعتقادات.. (ص٨٠).

(٤) فرق الشيعة (ص٦١، ٦٢).

(٥) التنبيه والرد (ص٣٧).

للعقل الكلى، لكن العقل أسبق فى الوجود فسمى بالسابق، وسميت النفس بالتالى، وبواسطة العقل الكلى والنفس الكلية وجدت جميع المبدعات الروحانية والمخلوقات الجسمانية، وإذا ذكر الله عند الإسماعيلية فالمقصود هو العقل الكلى، أما الذات الإلهية فهم ينفون عنها الأسماء والصفات، وكل ما يليق بالأعيان الروحية والصور الجسمانية، ونفى المعرفة عندهم هو حقيقة المعرفة وسلب الصفة هو نهاية الصفة[1].

وذهبوا فيما يدعونه من التترية إلى حد القول بأنه لا يقال عن الله موجود ولا لا موجود ولا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز، لما قد يفيده ذلك من وقوع الشركة بينه وبين الموجودات، ولذا قال عنهم الشهرستانى (فقيل فيهم إنهم نفاة الصفات حقيقة)[2]. ويبدو أن ما ذهب إليه الإسماعيلية فى القول بالعقل الكلى والنفس الكلية كان مبعثه أو دفعهم إليه ـ نزعتهم فى الغلو فى الإمام، فقد صار لديهم أن العقل الكلى فى العالم العلوى يقابله الإمام فى العالم الجسمانى، وأسبغت أسماء العقل الكلى على الإمام. من هنا قال من بعد شاعرهم ابن هانئ الأندلسى، فى مدح المعز لدين الله الفاطمى:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار　　فاحكم فأنت الواحد القهار

وقال شاعرهم أبو الحسن فى مدح الآمر بالله:

بشر فـى العـين إلا أنـه　　عن طريق العقل نور وهدى

جـل أن تدركـه أعيننـا　　وتعالـى أن نـراه جسـدًا

وقال شاعر آخر:

هذا أمير المؤمنين بمجلس　　أبصرت فيه الوحى والتنزيلا

---

(١) الإسماعيلية ـ للدكتور محمد كامل حسين (ص١٥٦) وما بعدها.

(٢) الملل والنحل للشهرستانى (جـ١، ص١٧٢) وما بعدها، وانظر أيضا علم الكلام للدكتور التفتازانى (ص٩١) وما بعدها.

وإذا تمثل راكبا فى موكب عاينت تحت ركابه جبريلا

وقال الأمير فى مدح أخيه العزيز بالله:

مضى من العلة الأولى التى سبقت خلق الهيولى وبسط الأرض والمدر[1]

من هذا وغيره يتبين أن الإسماعيلية أضفوا على الإمام صفات باطنية تخرجه عن حدود البشر مهما ألحوا هم فى بعض كتبهم على نفى ذلك، وجعلوا للإمام صفات لم تعرفها الشيعة الأخرى.. فالإمام هو: وجه الله، ويد الله، وجنب الله، وهو الذى يحاسب الناس يوم القيامة وهو الصراط المستقيم والذكر الحكيم، والقرآن الكريم[2]. ويبدو أنه بالرغم من هذا التداخل الذى تم بين الإسماعيلية والفلسفة والذى كانت تدعو إليه (مصلحة) المذهب، فى عقيدته الإمامية بوجه من الوجوه كانت له ذاتيته ـ على الأقل من حيث اختياره لعناصر فلسفية دون أخرى ـ مما جعل بعض مؤرخى الشيعة يذكرون أن الحركة العقلية التى قادها المأمون، كان يقصد بها ـ فيما يقصد ـ مقاومة الفكر الإسماعيلى، فى مرحلة كان قد أوشك فيها على النضج، فى عهد الإمام الإسماعيلى أحمد بن عبدالله بن محمد بن إسماعيل (ت٢٢٩هـ) الذى يقال أنه واضع رسائل إخوان الصفا، أو إنه الموجه إليها. وإذا كانت النزعة الباطنية نزعة للشيعة عامة، فإنه يبدو أن الإسماعيلية جعلوا منها مذهبا[3] أصيلا فجعلوا لكل شيء ظاهر محسوس تأويلا باطنيا، لا يعرفه إلا الأئمة والدعاة بقدر، بل لقد صاروا إلى أن عليا دون محمد صلى الله عليه وسلم ـ والرجل الصالح دون موسى ـ هو الذى كان على معرفة به، ولما كان هذا العلم سريا، وقع الخلاف بين قادتهم فى التأويل، فتأويلات منصور اليمن صارت إلى الغلو، وتأويلات دعاة فارس كان فيها طرح الفراض، والتأليه الصريح، وتأويلات الدعاة فى مصر كانت تتسم بالتعقل،

---

(١) انظر الإسماعيلية للدكتور محمد كامل حسين (ص١٥٩) وما بعدها.

(٢) المصدر السابق (ص١٥٣) وما بعدها.

(٣) انظر تاريخ الفلسفة الإسلامية لهنرى كوربان (٨٣، ١٣٧، ١٤٠) وانظر أيضا الملل والنحل للشهرستانى.

بل اضطروا إلى إنكارها أمام الشعب. والتراريون صاروا إلى ترك الظاهر جملة وتفصيلا[1].

ولقد كانت تأويلاتهم الباطنية تستهدف (شخصية الإمام) تفسيرا، وتمجيدا ـ كما كانت فلسفتهم فى الوجود.

ومن هنا كان آدم رجلا يحيا حياة إسماعيلية: فيها النبى، والإمام والدعاة ثم تطلع إلى رتبة دينية أكبر من رتبته. وتلك هى الشجرة..، وكانت الحياة عندهم تتجدد وتنقسم إلى فترات: على رأس كل فترة نبى، وبين كل نبى وآخر أئمة.. ومن هنا أيضا كان إمام العصر هو وارث كل من سبقه من الأنبياء والأئمة، يأخذ وصفهم وتطلق عليه أسماؤهم، ويقول شاعرهم مخاطبا إمامه صاحب القاهرة:

سلام على العترة الطاهرة ... وأهلا بأنوارها الباهرة
سلام بديا على آدم ... أبى الخلق باديه والحاضرة
سلام على من بطوفانه ... أديرت على من بغى الدائرة
سلام على قاهر بالعصا ... عصاة فراعنة جائرة
سلام على الروح عيسى ... الذى بمبعثه شرفت ناصرة
سلام على المصطفى أحمد ... ولى الشفاعة فى الآخرة
سلام على المرتضى حيدر ... وأبنائه الأنجم الزاهرة
سلام عليك فمحصولهم ... لديك أيا صاحب القاهرة[2]

ولقد تطرق تفسيرهم الباطنى إلى أركان العبادات، مما جعلهم متهمين باتخاذ مثل هذا التفسير ذريعة إلى إسقاط الشرائع. ومع ذلك يقول الدكتور محمد كامل حسين (والإسماعيلية يقولون بالباطن حقا. ولكنهم يقولون بالظاهر أيضا وأوجبوا الاعتقاد بالظاهر والباطن معا..).

---

(١) الإسماعيلية.. دكتور محمد كامل حسين (ص١٦١) وما بعدها.
(٢) الإسماعيلية.. دكتور محمد كامل حسين (ص١٦٨).

وفى ذلك يقول الداعى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى: (من حمل بالباطن والظاهر معا فهو منا، ومن عمل بأحدهما دون الآخر فالكلب خير منه وليس منا..[1]).

فهل نرجع ما قيل فى شأنهم إلى محض التعصب؟ أو تفسير الأمر بأن إسقاطهم للشريعة لم يكن يظهر منهم إلا فى مرحلة متأخرة من الدعوة، وإلا لطبقة مختارة من الواصلين؟.

أو نفسره بما يحتاط به مؤرخهم بقوله: (... اختلفت العقيدة الإسماعيلية فى كل قطر عما هى عليه فى قطر آخر فى الوقت الواحد... ففى زمن واحد نستطيع أن نتبين عقائد مختلفة متضاربة تنسب كلها إلى الإسماعيلية..)[2].

الذى يبدو لى ـ مع قلة المصادر وتشوش الأخبار ـ أن الإسماعيلية فى فترتها الأولى التى لا تتعدى القرن الثانى الهجرى، لم تكن قد تمزقت بعد إلى شعب كثيرة، فكانت من ثم تحتوى على خمائر الانحراف: الغلو فى الإمام، والغلو فى التفسير الباطنى.. وكانت هذه الخمائر كامنة إلى حد بعيد، لا يفجرها شيء من مقتضيات الخلاف ولا يعمل على توليدها شيء من مقتضيات الصراع الذى اضطرت إليه بعد. ولذا فإن لنا أن نكتفى هنا بهذه الإشارات الموجزة المناسبة لهذه المرحلة.

العقائد الشيعية العامة

ذكرنا فيما سبق الملامح الأساسية لكل فرقة من الفرق الشيعية وظهر فيما ذكرناه أن موضوع الإمامة ـ ببعده العقدى الذى يتجاوز البعد السياسى ـ هو محور الارتكاز فى بيان ذاتية كل فرقة من هذه الفرق. ونذكر فيما يلى جملة هامة من اتجاهاتهم وعقائدهم التى لا تخص فرقة بعينها، وإنما أكثر من فرقة وربما امتدت إلى

(١) الإسماعيلية.. دكتور محمد كامل حسين (ص١٤٨).
(٢) المصدر السابق.

فرق غير شيعية، وبعض هذه العقائد والاتجاهات يتعلق بفكرة الإمامة وبعضها يتجاوز إلى أفق أرحب..

المهدية:

يذكر الدكتور أحمد أمين فى كتابه ضحى الإسلام، أن الاستعمال الاصطلاحى لكلمة (المهدية) ظهر أول ما ظهر على يد كيسان مولى على بن أبى طالب فى قوله بمهدية محمد بن الحنفية ثم بعد ذلك على يد المختار[1]، ولكنه يذكر بعد ذلك أن فكرة المهدية نبتت فى عصر الإمام جعفر الصادق (٨٣-١٤٨هـ)[2].

ويرجع الدكتور كامل مصطفى الشبيبى بأولية الفكرة إلى التيار الشيعى الذى حركه المختار، مبينا أنها صارت بعد ذلك من طابع الشيعة عموما، إذ صار كل إمام شيعى مهديا لدى فرقته، أو فى مماته، ثم حدث التطور الذى وصل ظهور المهدى بنزول المسيح، وفى أواخر القرن الثالث عندما أعلنت غيبة المهدى الإثنى عشر[3].

ويؤكد الشيخ محمد رضا المظفر أن عقيدة المهدى ليست خاصة بالشيعة الإمامية، بل هى ثابتة (... عن النبى على وجه عرفها به جميع المسلمين..) و(لأجل ذلك آمنت بهذا الانتظار جميع الفرق المسلمة..)، كما نجده يحصر الفرق بين الإمامية الإثنى عشرية وغيرهم ـ فى هذا الشأن ـ فى أن الإمامية الإثنى عشرية ينتظرون واحدًا بعينه هو محمد بن العسكرى المولود عام (٢٥٦هـ) والذى اختفى ليرجع[4].

ويذهب صاحب (المهدية فى الإسلام) إلى أن ابن سبأ كان أول القائمين بعقيدة المهدى، وأنه ذهب إلى أنها ستتحقق برجعة على كمهدى فى آخر الزمان[5].

والمؤلف بعد ذلك يسرد مواقف الشيعة من هذا الأمر، فيشير إلى الكيسانية

---

(١) الجزء الثالث (ص٢٣٦).
(٢) المصدر السابق (ص٢٦٣).
(٣) الفكر الشيعى والنزعات والصوفية للدكتور كامل مصطفى الشبيبى (ص٢٣).
(٤) الشيخ محمد رضا المظفر فى كتابه عقائد الإمامية (ص٧٧) وما بعدها.
(٥) الأستاذ سعد محمد حسن، المهدية فى الإسلام (ص٩٣).

ودعوة المختار المهدى محمد بن الحنفية، وإلى رضا محمد بن الحنفية بهذا اللقب[١]. ثم يذكر اتفاق الزيدية على إنكار عقيدة المهدي[٢]، فيما عدا الجارودية لقولهم بمهدية النفس الذكية ـ أبى عبدالله محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، ولد عام (١٠٠هـ) وقتله المنصور عام (١٤٥هـ) ولم تعترف الجارودية بموته ـ ويذكر أن النفس الذكية كان يعتقد أنه المهدى حقا، وأن العباسيين استغلوا اسمه والدعوة إليه فى إقامة دولتهم، ثم تنكروا له بعد، وكذبه المنصور فى دعوته وزعم أن المهدى حقا هو ابنه المهدى.

أما الإمامية فقد كانوا فرقا، وكان لكل فرقة مهدى خاص[٣]، ومن المعروف أن الأمر صار لدى الإثنى عشرية أخيرًا إلى مهدية محمد بن الحسن العسكرى الإمام الغائب، ويعتقد الإثنا عشرية أنه سيظهر بظهوره تراث ضخم انحدر إلى الأئمة من الإمام على رضى الله عنه، ومن ذلك: حجر موسى، به يطعم المهدى جيشه ويسقيه، والجفران، ومصحف على ومصحف فاطمة، وصحيفتان فى إحداهما أسماء شيعته وأنصاره. وفى الأخرى أسماء أعدائه[٤].

هذا هو الأمر عند الشيعة.

لكنه لم يقتصر عليهم: فقد كان للأمويين مهدى ينادون به، يسمونه السفيانى، يستندون فيه إلى روايات يقرر صاحب الأغانى أنها رويت عن غير واحد، وتتابعت برواية الخاصة والعامة، ويرجح الدكتور أحمد أمين أنها موضوعة بفعل خالد بن زيد بن معاوية كما ذهب إلى ذلك مصعب[٥].

---

(١) ص٩٨، ١٠٥.

(٢) لقب زيد بن على بالمهدى فى حياته، لكن الأمر فيما يرجحه الدكتور النشار كان يقصد به المعنى اللغوى فحسب، أنظر كتابه نشأة الفكر الفلسفى ج٢، ص١٦٤، ١٦٥.

(٣) المصدر السابق (ص١٦٤، ١٦٥، ١٢٩).

(٤) المصدر السابق (ص٨٢) نقلا عن الكافى للكلينى.

(٥) انظر ضحى الإسلام (جـ٢، ص٢٢٨) هذا بينما يسوق المقدسى أخبار السفيانى على أنه شبيه بالدجال. انظر البدء والتاريخ (جـ٢، ص١٧٦، ١٧٧).

وكان للعباسيين دعواهم فى هذا الباب[1]:

ونقل الأستاذ سعد محمد حسن: أن الناس كانوا يرون أن موسى بن طلحة بن عبيدالله ـ وكان قد هرب من المختار من الكوفة إلى البصرة ـ هو المهدى. كما نقل أن التابعى الكبير سعيد بن المسيب كان يرى أن عمر بن عبدالعزيز هو المهدى، ورأى رأيه آخرون أيضا[2].

وهل ذهب الخوارج إلى هذا الأمر؟ يبدو ـ للأستاذ سعد محمد حسن ـ أن اليزيدية منهم كانوا ينحون هذا المنحى فى قولهم بانتظا نبى يبعث من العجم[3].

وهناك (الهاشمى الذى يخرج من خراسان مع الرايات السود إذ يروون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا رأيتم الرايات السود من قبل خراسان فاستقبلوها مشيا على أقدامكم لأن فيها خليفة الله المهدي"، وفى هذا أخبار كثيرة، هذا أحسنها وأولاها إن صحت الرواية).

ثم يذكر المقدسى: ان البعض يعتبر أن ذلك تحقق بأبى مسلم الخراسانى الذى وطأ لبنى هاشم[4]، وقبيل ذلك (١٢٨ هـ) ادعى الحارس بن سريج أنه ذلك المهدى المنتظر.

وهناك (... القحطانى فى رواية عبد الرازق عن معمر عن أبى قريب عن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال، لا تقوم الساعة حتى يقفل[5] القافل

---

(١) انظر (ص).

(٢) الأستاذ سعد محمد حسن: المهدية فى الإسلام (ص١٨٢).

(٣) المصدر السابق.

(٤) البدء والتاريخ لابن طاهر المقدسى (ج٢ ص١٧٤، ١٧٥) وقد أورده السيوطى فى الجامع الصغير برواية أحمد والحاكم عن ثوبان، وفى سنده على بن زيد بن جدعان، نقل فى الميزان عن أحمد وغيره تضعيفه، ثم قال الذهبى أراه حديثًا منكرا، وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات، قال ابن حجر: ولم يصب إذ ليس فيه متهم بالكذب اهـ. انظر فيض القدير فرع الجامع الصغيرة (جـ١ ص٢٦٣)، نشر المكتبة التجارية الكبرى.

(٥) من قفل كنصر وضرب قفولا رجع فهو قافل ـ كذا فى القاموس المحيط. البدء والتاريخ للمقدسى (جـ٢، ص١٨٣).

من رومية ولا تقوم الساعة حتى يسوق الناس رجل من قحطان، واختلفوا فيه من هو؟ فروى عن ابن سيرين أنه قال: القحطانى رجل صالح وهو الذى يصلى خلفه عيسى، وهو المهدى، وروى عن كعب أنه قال: يموت المهدى ثم يبايع بعده المهدي).

وبينما كان اليمانيون ينتظرون (القحطاني) كان المضريون ينتظرون (التميمي) وكان بنو كلب ينتظرون (الكلبي[1]).

وعند بعض الصوفية: أن المهدى هو خاتم الأولياء، كما أن الرسول خاتم الأنبياء، والمهدى هو لبنة الفضة فى بناء الولاية كما أن النبى كان لبنة الذهب فى بناء البنوة[2].

ومن هذا يتبين أن انتظار المهدى ليس أمرًا قاصرًا على الشيعة، بل (فى المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على مر الأعصار أنه لا بد فى آخر الزمان من ظهور رجل يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون، ويستولى على الممالك الإسلامية، ويسمى بالمهدي[3]). ولكن يتميز الشيعة بانتظارهم مهديا مسمى معينا عاش من قبل ثم غاب.

ويذكر ابن خلدون قرابة ثلاثين حديثا تدور حول ظهور المهدى، خرجها جماعة من الأئمة ـ ليس منهم البخارى أو مسلم... ـ منهم الترمذى، وأبو داود والبزاز، وابن ماجة والطبرانى وأبو يعلى الموصلى، وأسندوها إلى جماعة من الصحابة منهم على، وابن عباس وابن عمر، وطلحة، وابن مسعود، وابو هريرة وأنس، وأبو سعيد الخدرى، وأم حبيبة وأم سلمة، وثوبان، وقرة بن إياس، عن طريق رجال يرجح ابن خلدون ما ذكر فى جرحهم على ما ذكر فى تعديلهم[4].

وإذن فقد أخذ بهذه العقيدة الكثيرون من الشيعة وغيرهم، وإن كان الشيعة فى

---

(١) انظر السيادة العربية لفان فلوتن (ص١٢٢).
(٢) انظر مقدمة ابن خلدون (ص٢٢٤).
(٣) المصدر السابق (ص٢١١).
(٤) المصدر السابق (ص٣١١، ٣١٢).

ذلك قد جعلوها جزءا من الإيمان كوصف للإمام الحاضر أو الغائب، فضلا عما يذهب إليه الباحثون من أن هذه العقيدة ظهرت أولا عند الشيعة[١].

الرجعة:

أكثر الروافض على أن الأموات يرجعون إلى الدنيا قبل يوم الحساب[٢].

ويخطئ جولدزيهر إذ يقرر أن الرجعة إحدى العناصر الجوهرية فى نظرية الإمامة عند كافة فروع الشيعة إذ هى ليست كذلك بالإطلاق[٣].

ويذكر الملطى السبئية فى أول القائلين بالرجعة، رجعة علي[٤] كذلك ذكر ابن كثير أن عبدالله بن سبأ كان يذهب إلى رجعة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم[٥]، وابن خلدون يرجع بعقيدة الرجعة إلى السبئية أيضا.

ويرى الدكتور النشار أن الفكرة لم تأخذ صورتها الكاملة إلا عند الكيسانية فيما بعد[٦] أما قبل ذلك فإنها ترجع كخاطر سرعان ما اختفى إلى سيدنا عمر بن الخطاب[٧] حين علم بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: (ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما واعده الله كما واعد موسى، وليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فليقطعن أيدى ناس وأرجلهن[٨].. ويذكر النوبختى أن الكيسانية قالت: يرجع الناس فى أجسامهم التى كانوا فيها، ويرجع محمد صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر ما ذكرناه سابقا، والمهدية للأستاذ سعد محمد حسن (ص١٧٥) ونشأة الفكر الفلسفى للدكتور النشار (جـ٢، ص٢٠١، ٣٠٢).

(٢) المقالات للأشعرى (جـ ص١١٤).

(٣) العقيدة والشريعة فى الإسلام (ص٢١٤)، وهذا خطأ إذا أخذنا فى الاعتبار الصالحية والبترية من الزيدية.

(٤) التنبيه والرد (ص٢٥، ٢٦).

(٥) البداية والنهاية (جـ٧، ص١٦٨).

(٦) نشأة الفكر الفلسفى (جـ٢، ص٨٢) وما بعدها.

(٧) المصدر السابق (جـ٢، ص٣١).

(٨) العواصم من القواصم (ص٣٨) وقد ذكر محقق الكتاب رواية عن مسند الإمام أحمد مثل ذلك.

وجميع النبيين فيؤمنون به، ويرجع على بن أبى طالب[1]... ويذكر الشهرستانى مثل ذلك عن الكيسانية فى شأن محمد بن الحنفية: أنه يعود بعد الغيبة فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا، ويذكر الشهرستانى أن (هذا أول حكم بالغيبة والعودة حكم به الشيعة، وجرى ذلك فى بعض الجماعة حتى اعتقدوه دينا وركنا من أركان التشيع[2]). ويقول الدكتور كامل مصطفى الشبيبى عن الجديد الذى ظهر فى التشيع ـ بعد القول بالمهدية ـ (ولما مات محمد ابن الحنفية قالت الكيسانية من بقايا أنصار المختار برجعة ابن الحنفية.. [3]). ويذكر صاحب فوات الوفيات فيما يذكره عن السيد الحميرى أنه كان يرى رجعة محمد ابن الحنفية وأنه ـ يقال ـ إن جعفرا الصادق عرفه خطأه فى ذلك، وأنه على ضلال فتاب[4]. وذهب البعض إلى رجعة أبى مسلم الخراساني[5]، ومن القائلين بالرجعة من الشيعة: الواقفة الممطورة، ذهب بعضهم إلى أن موسى الكاظم الذى وقفت الإمامة لديه عندهم مات، ولا تكون الإمامة لغيره حتى يرجع[6].

أما الإمامية فيقول الشيخ المفيد: (اتفقت الإمامية على وجوب رجعة كثير من الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة، وإن كان بينهم فى معنى الرجعة اختلاف[7]). ثم يقول: (أقول إن الله يرد قوما من الأموات إلى الدنيا فى صورهم التى كانوا عليها فيعز فريقا منهم ويذل فريقا... وقد جاء القرآن بصحة ذلك وتظاهرت به الأخبار والإمامية بأجمعها إلا شذاذات منهم[8]) ويقول الشيخ محمد رضا المظفر: (ولا يرجع إلا من علت درجته فى الإيمان أو من بلغ الغاية من الفساد، ثم يصيرون بعد

---

(١) فرق الشيعة (ص٣٨).
(٢) الملل والنحل (جـ١، ص١٣١-١٢٤).
(٣) الفكر الشيعى للدكتور كامل مصطفى الشبيبى (ص٢٣، ٢٤).
(٤) فوات الوفيات لابن شاكر (جـ١، ص٢٣-٢٥).
(٥) انظر فلوتن: السيادة العربية (ص١٢٢).
(٦) فرق الشيعة للنوبختى (ص٦٧-٦٩).
(٧) أوائل المقالات (ص١٣).
(٨) أوائل المقالات (ص٥٠).

ذلك إلى الموت، ومن بعده إلى النشور وما يستحقونه من الثواب والعقاب)، ويبين فى دفاعه عن هذه العقيدة أنها تفترق عن التناسخ، وليست مستحيلة فى العقل، ودلت عليها الأخبار المتواترة عن آل البيت[1]، وإذا كان الشيعة يستشهدون على صحة عقيدة الرجعة بقوله تعالى: **(ربنا أمتنا اثنتين وأحيينا اثنتين)**، فإن الخياط المعتزلى يقرر عدم صحة هذا الاستدلال، ويبين أن هذه العقيدة وإن كانت تصح فى العقل إلا أنه ليس كل ما كان كذلك يكون صحيحا، إلا أن يرد به السمع، والسمع لم يرد بذلك، ويقرر أن الفرق الأخرى تنكر هذا القول: من المعتزلة والخوارج والمرجئة والحشوية والزيدية، والجارودية، والأمة كلها إلا أهل الإمامة[2].

البداء:

يذكر الشهرستانى البداء باعتباره بدعة من بدع الغلاة من الشيعة[3]، إلا أن الإمام الأشعرى يوسع الدائرة فيقول: (كل الروافض إلا شرذمة قليلة يزعمون أنه يريد الشيء ثم يبدو له فيه[4]) ونحن نعلم أن أول من اشتهر عنه القول بالبداء هو المختار وكان يقول: (إذا جاز النسخ[5] فى الأحكام، جاز النسخ فى الأخبار، والشيخ المفيد يقول: (أقول فى معنى البداء ما يقوله المسلمون بأجمعهم فى النسخ وأمثاله من الإفقار بعد الإغناء، والإمراض بعد الإعفاء... فأما إطلاق لفظ البداء فإنما صرت إليه بالسمع ولو لم يرد به سمع أعلم صحته ما استجزت إطلاقه.. ولكنه لما جاء السمع به صرت إليه على المعانى التى لا تأباها العقول، وليس بينى وبين كافة المسلمين فى هذا الباب خلاف وإنما خالف من خالف فى اللفظ دون سواه..[6]) ويقرر:

---

(١) عقائد الإمامية (ص٨٠).

(٢) الانتصار (ص٩٦) هذا بينما يذكر الشهرستانى أن الجارودية قالوا بالرجعة.

(٣) الملل والنحل (جـ١، ص١٥٥).

(٤) المقالات (جـ٢، ص١٠٧).

(٥) الملل والنحل للشهرستانى (جـ١، ص١٣٢) ويميل الشهرستانى إلى اعتبار أن المختار إنما كان يذهب فى البداء إلى أنه فى غير العلم.

(٦) أوائل المقالات (ص٥٣).

(أن البداء من الله يختص ما كان مشترطا فى التقدير، وليس هو الانتقال من عزيمة إلى عزيمة، ولا من تعقب الرأى تعالى الله عما يقول المبطلون علوا كبيرا..[١])

ويقول الشيخ محمد رضا المظفر: (قال الصادق (ع): من زعم أن الله تعالى بدا له فى شيء بداء ندامة فهو عندنا كافر بالله العظيم، وقال أيضا: من زعم أن الله بدا له فى شيء ولم يعلمه أمس فأبرأ منه، غير أنه وردت عن أئمتنا الأطهار روايات توهم القول بصحة البداء بالمعنى المتقدم، كما ورد عن الصادق (ع) "ما بدا له فى إسماعيل ابنى.." والصحيح فى ذلك أن نقول كما قال الله تعالى فى محكم كتابه المجيد: "يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب" ومعنى ذلك أنه تعالى قد يظهر شيئا على لسان نبيه أو وليه أو فى ظاهر الحال لمصلحة تقتضى ذلك الإظهار، ثم يمحوه فيكون غير ما قد ظهر أولا مع سبق علمه تعالى بذلك.. وقريب من البداء فى هذا المعنى نسخ أحكام الشرائع السابقة بشريعة نبينا صلى الله عليه وسلم، بل نسخ بعض الأحكام التى جاء بها نبينا صلى الله عليه وسلم[٢]) هذا ويفسر العاملى العالم الشيعى المحدث البداء بالإبداء[٣].

الصفات:

تكلم الشهرستانى عن مواقف السلف المتقدمين والمتأخرين منهم فى موضوع الصفات ثم تطرق إلى بيان مذهب الشيعة فى ذلك، فقال (الشيعة فى هذه الشريعة وقعوا فى غلو وتقصير، أما الغلو فتشبيه بعض أئمتهم بالإله تعالى وقدس[٤] وأما التقصير فتشبيه الإله بواحد من الخلق، ولما ظهرت المعتزلة والمتكلمون من السلف رجعت بعض الروافض عن الغلو والتقصير، ووقعت فى الاعتزال[٥]... ويَعُد

---

(١) تصحيح الاعتقاد (ص٢٥).

(٢) عقائد الإمامية (ص٤٥).

(٣) عقيدة الشريعة فى الإمام الصادق للسيد حسين يوسف مكى العاملى (ص٥٧).

(٤) تكلمنا عن طرف من ذلك فى نظرة فرق الشيعة المختلفة إلى الإمام ثم نتكلم فى موضع آخر عن الغلو الأعظم عند الكلام عن ادعاء الألوهية، إنكارا منا لأن يكون مثل هذا النوع من الغلو منتسبا إلى الفرق الإسلامية فى شيء.

(٥) الملل والنحل (جـ١، ص٨٤).

الإسفراييني من المجسمة: السبئية، البيانية، المغيرية، المنصورية، المقنعية، الهاشمية، الشيطانية[1]، وهؤلاء من غلاة الشيعة ـ أو أغلبيتهم الساحقة ـ الذين يقول فيهم الشهرستاني إن بدعهم محصورة في أربع: التشبيه والبداء والرجعة والتناسخ[2].

وذهب هشام بن الحكم إلى أنه تعالى: جسم لا كالأجسام؛ وصورة لا كالصور وله قدر لا كالأقدار[3]، ويقول الخياط المعتزلي (.. فهل كان على الأرض رافضي إلا وهو يقول: إن الله صورة، ويروى في ذلك الروايات، ويحتج فيه بالأحاديث عن ائمتهم، إلا من صحب المعتزلة منهم قديما فقال بالتوحيد فنفته الرافضة عنها، ولم تقربه)[4]. ويذكر الأشعري أن الروافض ست فرق فيما يتصل بقضية التجسيم: خمس منها تدور حول التجسيم، وتقع فيه، أو تضيف إليه التشبيه بالإنسان، والسادسة (من يزعمون أن ربهم ليس بجسم ولا بصورة ولا يشبه الأشياء، ولا يتحرك ولا يسكن ولا يماس. وقالوا في التوحيد بقول المعتزلة والخوارج، وهؤلاء قوم من متأخريهم، فأما أوائلهم فإنهم كانوا يقولون ما حكينا عنهم من التشبيه[5]).

الشيعة والمعتزلة:

واضح مما تقدم أن الشيعة تطورت إلى الأخذ بمذهب المعتزلة في الصفات كما أنها أخذت بمذهبهم في العدل[6] والأمر الذي يستدعي البحث: كيف حدث هذا التطور؟ وهل تتلمذ الشيعة على المعتزلة في هذا المضمار؟

يقول الدكتور أحمد أمين: إن الشيعة قالوا في أصول الدين بقول المعتزلة، إلا في

---

(١) التبصير في الدين (ص٧٠) وما بعدها.
(٢) الملل والنحل (جـ١، ص١٥٥).
(٣) المصدر السابق (ص١٦٤).
(٤) الانتصار للخياط (ص١٠٥).
(٥) المقالات (جـ١، ص١٠٢ وما بعدها إلى ص١٠٥).
(٦) انظر العقيدة والشريعة لجولد زيهر (ص٢٢٣).

مسائل معدودة فى الإمامة، ويتساءل: ايهما أخذ من الآخر؟ ويذكر أن بعض الشيعة يزعمون أن المعتزلة هم الذين أخذوا عنهم: أخذ واصل عن أبى هاشم والحسن بن محمد بن الحنفية وعن جعفر الصادق.. ثم يرجح أن الشيعة هم الذين أخذوا عن المعتزلة، إذ تتلمذ زيد بن على لواصل بن عطاء، وإذ كان يتشيع كثير من المعتزلة[1].

والدكتور النشار يقف طويلا عند هذه المسألة: فيشير إلى محاولة الشيعة لإثبات أن القول بالعدل والتوحيد إنما نشأ فى رحاب البيت العلوى، وأنه انبثق من على أولا، ثم من محمد ابن الحنفية، وابنه أبى هاشم ثانيا، ثم أخذ به الأئمة جميعًا[2] حتى دخل فى عقائد الإثنى عشرية.. ويحكم بالخطأ على هذا الاتجاه، ويحلل علاقة جعفر الصادق بزيد بن على، والملاحاة التى قامت بينهما بسبب علاقة الثانى بواصل بن عطاء واللقاء الذى تم بين جعفر وواصل وإنكار كل منهما على الآخر، ويخلص من ذلك إلى أن جعفر لم يكن يوافق واصلا فى عقيدته فى العدل لا فى المنزلة بين المنزلتين فحسب، وأن القضية الأخيرة كانت موضع إنكار من زيد بن على أيضا[3].

ويزيد المشكلة تعقيدا أن الأمر لا يقتصر على محاولة الشيعة إرجاع أصول الاعتزال إلى أئمتهم، ليبرروا أخذهم بها، بل يتعدى إلى محاولة بعض المعتزلة ـ أنفسهم ـ إرجاع آرائهم إلى أئمة البيت، ليقووا الدعوة إليها، ومثل هذا القول لا ينبغى أن يؤخذ على علاته لما نعرفه من محاولة الفرق جميعا الانتساب إلى على رضى الله عنه، (فالمجبرة وضعوا نفس الأئمة فى سلسلة مشايخهم[4]).

ويقول الدكتور النشار إن زيدا (لم يتفق اتفاقا تاما مع معتزلية واصل، من المحتمل أن يكون الزيدية بعد زيد اعتنقوا المذهب المعتزلى جملة، ولكن ليس من

---

(١) ضحى الإسلام (جـ٣، ص٢٦٧) ويذكر الخياط على رأس متشيعة المعتزلة أبا جعفر الإسكافى، انظر الانتصار (ص٧٦)، ويذكر الشهرستانى ميل النظام إلى الرفض: انظر الملل والنحل (جـ١، ص٥٨، ٥٩).

(٢) انظر أيضا العقيدة والشريعة لجولدزيهر (ص٢٢٢).

(٣) نشأة الفكر الفلسفى (جـ٢، ص١٦٥-١٦٨).

(٤) المرجع السابق (جـ٢، ص١٦٥-١٦٨).

الدقة فى شيء أنهم أخذوا بكل تفصيلات المذهب).

فلزيد رأيه الذى لا يتفق فيه مع المعتزلة فى مسألة مرتكب الكبيرة، والتحسين والتقبيح، وأنه لابد فى أول التكليف وابتدائه فى العالم من رسول.

وجمهور الزيدية يرون أن الله شيء لا كالأشياء والسليمانية لا يصفون الله بالقدرة على الظلم، وقد رأينا فيما سبق قول بعض الزيدية بقول أهل السنة، وقول آخرين منهم بقول المعتزلة. وقول آخرين بقول الإمامية.

أما عن الإمامية فيذكر الدكتور النشار أن الباقر كان عدوا صريحا للمعتزلة[1] وكان من رجال الحديث المتبعين للأثر، وأن جعفر الصادق عليه السلام كان أقرب إلى أهل السنة والجماعة فى آرائه الكلامية مع اعتزال غير واضح، وأنه كان يكره واصلا وعمرو بن عبيد كراهية شديد، وكره مذاهبهما، ويذكر أن كتاب الانتصار للخياط وثيقة نادرة تثبت ما بين المعتزلة والشيعة الإمامية وبخاصة هشام بن الحكم ـ وهو تلميذ جعفر ووصيه وصديقه ـ من اختلافات كبرى فى دقيق الكلام، ويذكر أيضا آراء جعفر فى القدر والجبر والاختيار مما لا يتفق فيه مع آراء المعتزلة، ويصنف مراحل تطور الإمامية إلى الاعتزال على مراحل أربع: المرحلة السلفية القديمة على يد على بن أبى طالب، وحفيديه على زين العابدين، ومحمد الباقر عليهم السلام، والمرحلة الكلامية العقلية المتوسطة وهى أقرب ما تكون إلى الاتجاه الأشعرى: على يد جعفر الصادق، ومرحلة التجسيم على يد تلامذة جعفر، هشام ابن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقى ومؤمن الطاق، وهذه المرحلة قدر لها أن تنتشر آراؤها، وظهر كتاب الانتصار المعتزلى فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى، يؤرخها ويتصدى لها، ثم ظهر كتاب أوائل المقالات للشيخ المفيد المتوفى (٤١٣هـ) وهو يمثل المرحلة الأخيرة من مراحل الشيعة الإمامية ـ فى العدل والتوحيد ـ وتابعه فى ذلك آخرون.

---

(١) نشأة الفكر الفلسفى (ص١٧١).

ويرجح المؤلف أن من عوامل احتضان الشيعة الإمامية للآراء الاعتزالية ـ فى المرحلة الأخيرة ـ ما يرجع إلى ظروف اضطهاد الأشاعرة للمعتزلة ولجوء هؤلاء لأحضان الشيعة، يتقوى كل منهم بالآخر، هذا بالإضافة إلى دخول كثير من الزيود فى الإمامية أو عودتهم إليها إذ حملوا معهم كثيرا من عناصر مذهبهم ومزجوه بمذهب الإثنى عشرية[1].

علاقة الشيعة بالغلاة:

حديثنا عن الغلاة هنا فى فصل الشيعة ليس لبسط آرائهم أو غلوهم، وليس إقرارا منا لدعوى دخولهم فى نطاق التشيع وإنما هو للتعريف بجملتهم، باعتبار اغتذائهم بأصول الشيعة، رضيت الشيعة بذلك أو كرهت، أما الحديث التفصيلى عنهم، فلقد ذكرنا من قبل أننا نؤثر أن نضعه فى مكانه من حيث ادعاء الألوهية أو ادعاء النبوة، أو غير ذلك من مهاوى الغلو والانحراف التى يبرأ منها الإسلام.

ونسارع هنا إلى تفسير أنه إن كان فيما ذكرناه عن بعض فرق الشيعة فيما سبق لمحة من الغلو هنا أو هناك عند الإمامية مرة، والإسماعيلية الأولى مرة أخرى إلا أن إجمال المذهب فى كل من هذه قضى بأن يعترف له بمكانه بين فرق المسلمين أما من يمكن أن نسميهم بالغلاة الخلص، أو الذين يستغرقهم الغلو فلا يدع لهم ملجأ إلى الإسلام، فأولئكم الذين لم نجد لهم بين فرق المسلمين موضع قدم، ومن واجبنا أن نذكرهم هناك بين قرنائهم من أرباب العقائد غير الإسلامية، أما هنا فتقتصر على ذكرهم إجمالا، للتعريف بعلاقتهم بالشيعة.

يقول الشهرستانى عن الغلاة: (هم الذين غلوا فى حق أئمتهم، حتى أخرجوهم من حدود الخليقية وحكموا فيهم بأحكام الإلهية..)[2].

---

(١) انظر نشأة الفكر الفلسفى للدكتور النشار (جـ٢، ص١٦٩، ١٧١، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٢).

(٢) الملل والنحل (جـ١، ص١٥٥).

ويقول الشيخ المفيد: (والغلاة من المتظاهرين بالإسلام هم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليهم السلام إلى الألوهية والنبوة ووصفهم من الفضل فى الدين والدنيا إلى ما تجاوزوا فيه الحد وخرجوا عن القصد وهم ضلال كفار)[1].

وأوائل الغلاة ظهروا بالكوفة منذ عهد على رضى الله عنه، بمقالة عبدالله بن سبأ، وكان لهم بعد مقتل الحسين ملتقى أو ندوة بالكوفة فى بيت هند بنت المتكلفة الناعطية، وليلى بنت قمامة الناعطية. وكان الناعطيون من أصحاب على فى الكوفة وطائفة من طوائف جيشه فى اليمن، ويذكر الطبرى أن هندا كان يجتمع إليها كل غال من الشيعة، وكان عبدالله بن نوف ـ من دعاة المختار ـ من المترددين على ندوتها[2].

ولقد تفاقم أمر الغلاة على يد مدعى النبوة. والألوهية، من مثل السبئية والغرابية والمغيرية، والبيانية، والمصنورية، والبزيغية، والعمرية، والخداشية، والمحمدية، والخطابية، والمقنعية، والحربية، والعينية، والميمية، والسينية، وغيرهم[3].

ومن المعروف أن الأئمة الذين ينتسب إليهم الشيعة الأوائل أنكروا ما نسبه إليهم الغلاة: فقد رمى على فى النار من دعاه من هؤلاء، ونفى عبدالله بن سبأ[4] وأنكر محمد بن الحنفية ما نسبوه إليه من إحاطته بعلوم سرية[5]، وجاهد محمد الباقر فى صد تيار الغلو، فتبرأ من حمزة بن عمار البربرى ولعنه فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، كما تبرأ من سمعان والمغيرة[6].

---

(١) تصحيح الاعتقاد (ص٦٣).
(٢) تاريخ الطبرى (جـ٢، ص٧٣١-٧٣٣).
(٣) انظر الملل والنحل للشهرستانى (جـ١، ص١٥)، والمقالات للأشعرى (جـ١، ص٧٨)، والفصل لابن حزم (جـ٣، ص١٨٣-١٨٦).
(٤) الملل والنحل (جـ١، ص١٥٥).
(٥) الطبقات لابن سعد كلامه عن محمد بن الحنفية.
(٦) فرق الشيعة للنوبختى (ص٢٨، ٢٤).

وفعل جعفر الصادق مثل ذلك[1]، ونسبت إليه تعاليم وأقوال لم يقلها[2].

ومع ذلك فهل لنا أن نقول إنه كان لهم ـ أو لبعضهم ـ تأثير سلبى غير مقصود ساعد على نمو الغلو؟

يقرر الدكتور مصطفى كامل الشيبى: أن التباعد الذى كان حاصلا فى مبدأ الأمر بين الشيعة وبين قادتهم العلويين، بفعل الضغط السياسى وبخاصة فى عهد عبدالملك بن مروان، (أدى بأهل الكوفة إلى أن يدينوا بالغلو ويرتفعوا بالأئمة من الإنسانية إلى الألهية[3]) ويعزو نمو حركة الغلو إلى ما حدث بعد مقتل الحسين رضى الله عنه من خلو مركز الزعامة من إمام يمارس القيادة بنفسه، ولما تبرأ على بن الحسين من الغالين فى الكوفة جعلوا يباشرون نشاطهم السياسى باسم الغلو باعتباره حزبا سياسيا مستقلا عن الأئمة لا يؤثر فيه رضاهم أو سخطهم، ومن هنا نضج الغلو وتطور بحيث صار حركة لها فلسفتها واستقلالها[4].

وأحب أن نقول هنا إنه يجب أن نأخذ فى اعتبارنا ونحن بصدد تقدير حركة الغلو أنه ينبغى ألا ننظر إليها نظرة سطحية باعتبارها حركة يقوم بها كائدون للإسلام متربصون به فحسب، بل يجب أن نقدر ما كان يلتبس بذلك من إخلاص لهذه الانحرافات الشنيعة، وأن نقدر أثر هذا الإخلاص فى ثباتها وتطورها، وخطورتها، ومن ثم ما كان يلزم آنذاك من مواجهتها ليس بالسيف فحسب بل بالمعالجة النفسية والفكرية.

فهؤلاء الذين يؤلهون عليا، ويعاقبهم على بالإحراق بالنار دخلوا النار وهم يضحكون ويقولون: الآن صح لنا أنك إله[5]، وهؤلاء الذين ألهوا أبا جعفر المنصور جعلوا يطوفون بقصره ويقولون إن أبا جعفر خالقهم ورازقهم، ثم زعموا أنهم

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى (جـ١، ص١٤٧).
(٢) الإسماعيلية للدكتور محمد كامل حسين (ص٩).
(٣) الفكر الشيعى (ص١٦).
(٤) المصدر السابق (ص٢١).
(٥) البدء والتاريخ لابن طاهر المقدسى (جـ٥، ص١٢٥).

بمنزلة الملائكة، وخاطوا الحرير على مثال الأجنحة، وغرزوا فيه الريش، وصعدوا تلا عظيما بحلب، وطاروا منه فتكسروا وهكلوا[1]).

ومهما يكن من أمر فإن البغدادى ـ ونحن نتابعه فى ذلك ـ يقرر أن جميع فرق الغلاة خارجون عن فرق الإسلام[2]، والحديث عنهم له مجال آخر.

والشيعة بوجه عام لم يلتزموا بمحدودية العقل التى كان من شأنها أن تقف بهم دون إضافة بعض الغيبيات الاجتهادية ـ غالبا ـ إلى عقائدهم: كالإيمان بالرجعة، وضرورة الإمام، وعصمة الإمام، ونورانيته، وعلمه الكامل والسرى ووضع مبادئ الغلو فيه.

كما لم يلتزموا بالعقل العملى الذى كان من شأنه أن يدفع بهم ناحية تأييد ما ذهب إليه الإمام زيد، من جواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل ولو من غير الفاطميين، لمصلحة المسلمين، وكان من شأنه أن يقف بهم دون الطعن فى طائفة من الصحابة من شأن الطعن فيهم أن يؤدى إلى نتائج سلبية خطيرة بالنسبة للإسلام عموما، وكان من شأنه كذلك أن يقف بهم دون الخروج على الإمام ـ فى بعض التطورات التاريخية ـ خروجا استشهاديا، خاليا من تدبر كاف للعواقب.

وهم بعد ذلك ذهبوا فى مدى الجدل إلى مراحل انتقلت به من سرادقات النقاش، إلى ساحات التنابز بالكفر، والتحارب بين الدول الإسلامية.

---

(١) المصدر السابق (ص١٣١، ١٣٢).

(٢) الفرق بين الفرق (ص٢١).